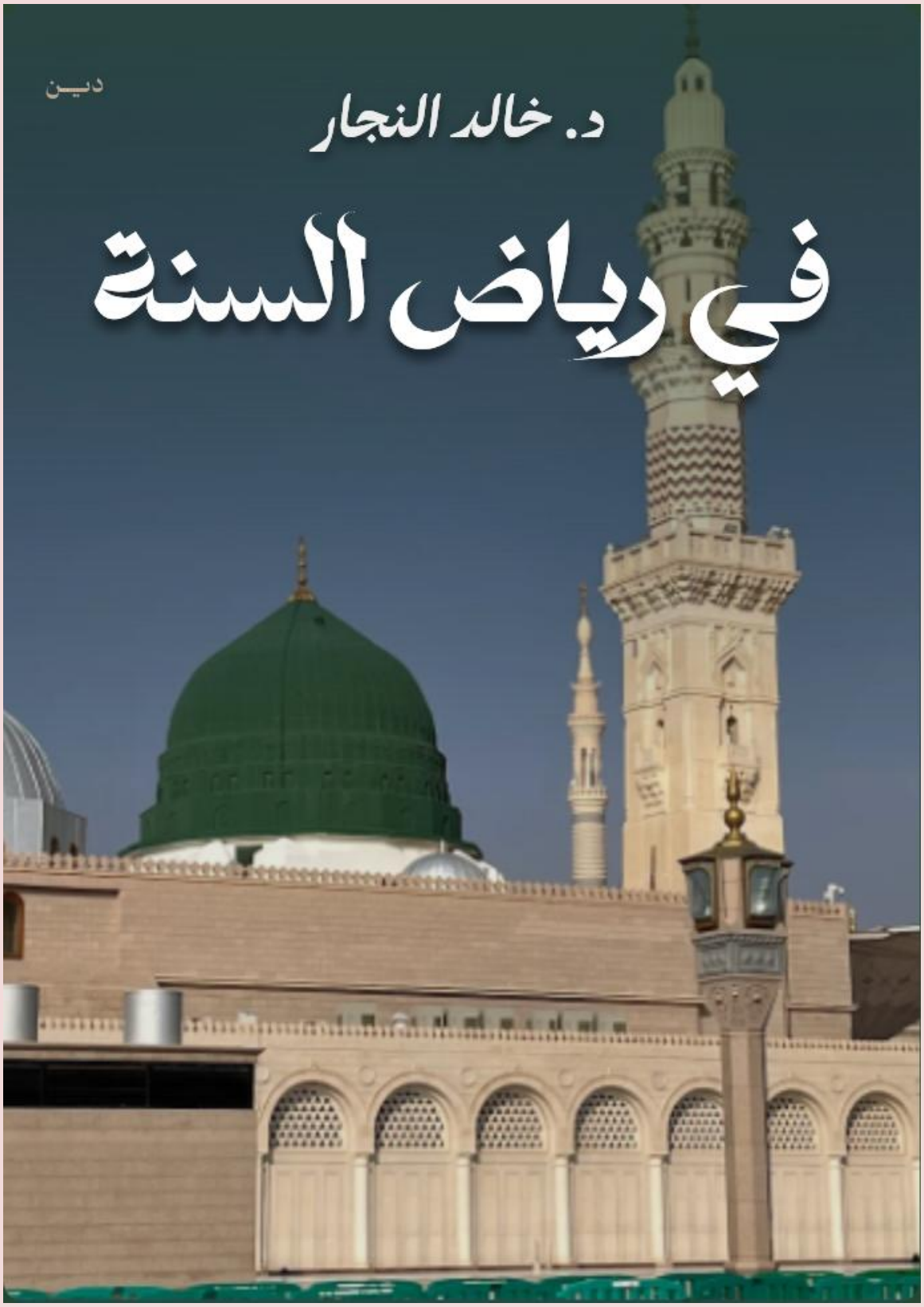
دين
د. خالد النجار
في رياض السنة

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا أحب الله عبدا

عن قتادة بن النعمان –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–:

(إذا أحب الله عبدا، حماه الدنيا، كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء) (١)

الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها، ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها، ثم هي فرارة عن طلابها شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها.

إن أحسنت ساعة أساءت سنة، وإن أساءت مرة جعلتها سُنة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بينها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة.

فكل مغرور بها إلى الذل مصيره، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره، شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته ومن أعرض عنها واتته، لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم.

فهي خداعة مكارة طيارة فرارة، لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمامها، ورشقتهم بصوائب سهامها، بينما أصحابها منها في سرور وإنعام إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام.

ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد، ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد، إن ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس، تمني أصحابها سرورا، وتعدهم غرورا حتى يأملون كثيرا، ويبنون قصورا، فتصبح قصورهم قبورا، وجمعهم بورا، وسعيهم هباء منثورا، ودعائهم ثبورا (٢)

قال تعالى: {وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}]آل عمران:١٨٥] أي تغر المؤمن وتخدعه فيظن طول البقاء وهي فانية، والمتاع ما يتمتع به وينتفع كالفأس والقدر والقصعة ثم يزول ولا يبقى ملكه قاله أكثر المفسرين، وقال الحسن: كخضرة النبات ولعب البنات لا حاصل له، وقال قتادة: هي متاع متروك توشك أن تضمحل بأهلها فينبغي للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع، والغرور (بفتح الغين) الشيطان، يغر الناس بالتمنية والمواعيد الكاذبة، قال ابن عرفة: الغرور ما رأيت له ظاهرا تحبه وفيه باطن مكروه أو مجهول . والشيطان غرور لأنه يحمل على محاب النفس ووراء ذلك ما يسوء، ومن هذا بيع الغرر وهو: ما كان له ظاهر بيع يغر وباطن مجهول (٣)

وقال جل شأنه: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [الحديد: ٢٠]

والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحس أمرا عظيما هائلا، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئا زهيدا تافها. وهي هنا في هذا التصوير تبدوا لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة! لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر.

هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل.. ثم يمضي يضرب لها مثلا مصورا على طريقة القرآن المبدعة {كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ}

والكفار هنا هم الزراع، فالكافر في اللغة هو الزارع يكفر أي يحجب الحبة ويغطيها في التراب، ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا!

{ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً} للحصاد فهو موقوت الأجل ينتهي عاجلا ويبلغ أجله قريبا {ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً} وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة.. ينتهي بمشهد الحطام!

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن، شأن يستحق أن يحسب حسابه وينظر إليه ويستعد له {وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ} فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا وهي لا تنتهي إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله. إنها حساب وجزاء ودوام يستحق الاهتمام!

{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع، وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة، حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ولا إهمال عمارتها وخلافتها التي ناطها بهذا الكائن البشري، إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض، هذا الاستعلاء الذي كان المخاطبون بهذه السورة في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم، والذي يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة ليحقق عقيدته، ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعا (٤)

قال عز وجل:

– {لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: ٨٨]

– {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [الكهف:٢٨]

– {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [طه:١٣١]

والعين لا تمتد إنما يمتد البصر أي يتوجه، ولكن التعبير التصويري يرسم صورة العين ذاتها ممدودة إلى المتاع، وهي صورة طريفة حين يتصورها المتخيل، والمعنى وراء ذلك ألا يحفل الرسول –صلى الله عليه وسلم– بذلك المتاع الذي آتاه الله لبعض الناس رجالا ونساء ـ امتحانا وابتلاء ـ ولا يلقى إليه نظرة اهتمام أو نظرة استجمال أو نظرة تمن، فهو شيء زائل وشيء باطل، ومعه هو الحق الباقي من المثاني والقرآن العظيم.

وهذه اللفتة كافية للموازنة بين الحق الكبير والعطاء العظيم الذي مع الرسول –صلى الله عليه وسلم–، والمتاع الصغير الذي يتألق بالبريق وهو ضئيل، يليها توجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم– إلى إهمال القوم المتمتعين والعناية بالمؤمنين، فهؤلاء هم أتباع الحق الذي جاء به، والذي تقوم عليه السماوات والأرض وما بينهما.

وأولئك هم أتباع الباطل الزائل الطارئ على صميم الوجود، اصبر نفسك مع هؤلاء، صاحبهم وجالسهم وعلمهم، ففيهم الخير وعلى مثلهم تقوم الدعوات، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع، ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع وليتجروا بها في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصة له، لا تبغي جاها ولا متاعا ولا انتفاعا، إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه

{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ} من عرض الحياة الدنيا، من زينة ومتاع ومال وأولاد وجاه وسلطان {زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا} التي تطلعها كما يطلع النبات زهرته لامعة جذابة، والزهرة سريعة الذبول على ما بها من رواء وزوق، فإنما تمتعهم بها ابتلاء {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} فنكشف عن معادنهم بسلوكهم مع هذه النعمة وذلك المتاع، وهو متاع زائل كالزهرة سرعان ما تذبل {وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى} وهو رزق للنعمة لا للفتنة، رزق طيب خير باق لا يذبل ولا يخدع ولا يفتن، وما هي دعوة للزهد في طيبات الحياة، ولكنها دعوة

إلى الاعتزاز بالقيم الأصيلة الباقية وبالصلة بالله والرضى به، فلا تتهاوى النفوس أمام زينة الثراء، ولا تفقد اعتزازها بالقيم العليا، وتبقى دائما تحس حرية الاستعلاء على الزخارف الباطلة التي تبهر الأنظار. (٥)

والله جل شأنه إذا فتح الدنيا وزينتها على العصاة فإنما هو استدراج.

قال تعالى:

– {فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة:٥٥]

– {وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ٨٥] أي لا تعجبك كثرة أولادهم وأموالهم لأن ذلك استدراج لهم {إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب.

{وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} فيموتوا كافرين لاهين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك استدراجا لهم (٦)

وقال تعالى: {اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ} [الرعد:٢٦]

يخبر تعالى عن سنة من سننه في خلقه وهي أنه يبسط الرزق أي يوسعه على من يشاء امتحانا هل يشكر أم يكفر ويضيق ويقتر على من يشاء ابتلاء هل يصبر أو يجزع، وقد يبسط الرزق لبعض إذ لا يصلحهم إلا ذاك، وقد يضيق على بعض إذ لا يصلحهم إلا ذاك، فلن يكون الغنى دالا على رضى الله، ولا الفقر دالا على سخطه تعالى على عباده

{وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي فرح أولئك الكافرون بالحياة الدنيا لجهلهم بمقدارها وعاقبتها وسوء آثارها وما الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه وهم أهل الإيمان به وطاعته إلا متاع قليل ككف التمر أو قرص الخبز يعطاه الراعي غذاء له طول النهار ثم ينفد (٧)

وقال تعالى: {فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ، أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون:٥٤-٥٦] أي أيحسبون يا محمد أن الذي نعطيهم في الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم، إنما هو استدراج وإملاء، ليس إسراعا في الخيرات.

وقال أيضا: {وَقَالَ الْمَلأ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُون} [المؤمنون:٣٣].. {وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا. والترف يفسد الفطرة ويغلظ المشاعر ويسد المنافذ ويفقد القلوب تلك الحساسية المرهفة التي تتلقى وتتأثر وتستجيب (٨)

قال ابن الجوزي: أشد الناس جهلا منهوم باللذات، واللذات على ضربين: مباحة ومحظورة، فالمباحة لا يكاد يحصل منها شيء إلا بضياع ما هو مهم من الدين، فإذا حصلت منها حبة قارنها قنطار من الهم، ثم لا تكاد تصفو في نفسها بل مكدراتها ألوف، فإذا صور عدمها بعد انقضائها وبقاء هذه الألوف المكدرة صار التصوير مغلصما [أي مشدودا] للهوى مجرئا [أي محزنا] للنفس، فإذا أنفت أنفت من الأسف على الدوام ما لا تحويه صفة، فهي تغر الغمر [أي الجاهل] وتهدم العمر وتديم الأسى، ومع هذا فالمنهوم كلما عب من لذة طلب أختها، وقد عرف جناية الأولى وخيانتها، وهذا مرض العقل وداء الطبع فلا يزال هذا كذلك إلى أن يختطف بالموت، فيلقى على بساط ندم لا يستدرك، فالعجب ممن همته هكذا مع قصر العمر، ثم لا يهتم بآخرته التي لذتها سليمة من شامت، منزهة عن معائب، دائمة الأمد، باقية ببقاء الأبد، وإنما يحصل تقريب هذه بإبعاد تلك، وعمران هذه بتخريب تلك؟

فواعجبا لعاقل حصيف حسن التدبير فاته النظر في هذه الأحوال، وغفل عن التمييز بين هذين الأمرين، وإن كانت اللذة معصية انضم إلى ما ذكرناه عار الدنيا، والفضيحة بين

الخلق، وعقوبة الحدود، وعقاب الآخرة، وغضب الحق سبحانه، بالله إن المباحات تشغل عن تحصيل الفضائل، فذم ذلك لبيان الحزم، فكيف بالمحرمات التي هي غاية الرذائل؟ (٩)

قال المناوي: (إذا أحب الله عبداً حماه) أي حفظه من متاع (الدنيا) أي حال بينه وبين نعيمها وشهواتها ووقاه أن يتلوث بزهرتها لئلا يمرض قلبه بها وبمحبتها وممارستها ويألفها ويكره الآخرة (كما يحمي) أي يمنع (أحدكم سقيمه الماء) أي شربه إذا كان يضره، وللماء حالة مشهورة في الحماية عند الأطباء، فهو جلّ اسمه يذود من أحبه عن الدنيا حتى لا يتدنس بها وبقذارتها ولا يشرق بغصصها، كيف وهي للكبار مؤذية وللعارفين شاغلة وللمريدين حائلة ولعامة المؤمنين قاطعة، والله تعالى لأوليائه ناصر، ولهم منها حافظ وإن أرادوها (١٠)

وفي رواية لأحمد (إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه)

قال المناوي (إن اللّه تعالى ليحمي عبده المؤمن) من (الدنيا) أي يحفظه من مال الدنيا ومناصها ويبعده عما يضر بدينه منها (وهو يحبه) أي والحال أنه يحبه (كما تحمون مريضكم الطعام) أي من تناول الطعام (والشراب تخافون عليه) أي لكونكم تخافون عليه من تناول ما يؤذيه منها، أي والحال أنكم تخافون عليه من ذلك.

وذلك لأنه سبحانه وتعالى خلق عباده على أوصاف شتى، فمنهم القوي والضعيف والوضيع والشريف، فمن علم من قلبه قوة على حمل أعباء الفقر – الذي هو أشد البلاء – وصبر على تجرع مرارته أفقره في الدنيا ليرفعه على الأغنياء في العقبى، ومن علم ضعفه وعدم احتماله وأن الفقر ينسيه ربه صرفه عنه لأنه لا يحب أن عبده ينساه أو ينظر إلى من سواه، فسبحان الحكيم العليم.

قيل في الحكم: ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء، متى أعطاك أشهدك بره ومتى منعك أشهدك قهره فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجود لطفه عليك إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه.

وقال الجيلاني: للنفس حالان ولا ثالث لهما: حال عافية، وحال بلاء. فإن كانت في بلاء فشأنها غالباً الجزع والشكوى والاعتراض والتهمة لله بغير صبر ولا رضى ولا موافقة، بل محض سوء أدب، وشرك بالخلق والأسباب، وإن كانت في عافية ونعمة فالأشر والبطر واتباع الشهوات كلما نالت شهوة تبعت أخرى وتطلب أعلا منها وكلما أعطيت ما طلبت توقع صاحبها في تعب لا غاية له وشأنها إذا كانت بلاء لا تتمنى إلا كشفه وتنسى كل نعيم ولذة فإذا شفيت رجعت إلى رعونتها وأشرها وبطرها وإعراضها عن الطاعة وتنسى ما كانت فيه من البلاء فربما ردّت إلى ما كانت فيه من البلاء عقوبة وذلك رحمة من الله بها ليكفها عن المخالفة فالبلاء أولى بها ولو أنها لم ترجع لرذائلها لكنها جهلت فلم تعلم ما فيه صلاحها (١١)

وقال ابن الجوزي: تفكرت في قول شيبان الراعي (١٢) لسفيان: "يا سفيان عد منع الله إياك عطاء منه لك، فإنه لم يمنعك بخلا، إنما منعك لطفا".

فرأيته كلام من قد عرف الحقائق، فإن الإنسان قد يريد المستحسنات الفائقات فلا يقدر، وعجزه أصلح له، لأنه لو قدر عليهن تشتت قلبه، إما بحفظهن أو بالكسب عليهن، فإن قوى عشقه لهن ضاع عمره وانقلب هم الآخرة إلى اهتمام بهن، فإن لم يردنه فذاك الهلاك الأكبر، وإن طلبن نفقة لم يطقها كان سبب ذهاب مروءته وهلاك عرضه، وإن أردن الوطء وهو عاجز فربما أهلكته أو فجرن، وإن مات معشوقه هلك هو أسفا، فالذي يطلب الفائق يطلب سكينا لذبحه وما يعلم، وكذلك إنفاذ قدر القوت فإنه نعمة وفي الصحيحين أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا) (١٣) ومتى كثر تشتت الهمم، فالعاقل من علم أن الدنيا لم تخلق للتنعيم، فقنع بدفع الوقت على كل حال (١٤)

ولذلك حذر النبي –صلى الله عليه وسلم– أمته من التكالب على الدنيا، والسنة النبوية عامرة بالأحاديث الصحيحة التي تدور حول هذا المعنى الجليل:

فعن عمرو بن عوف الأنصاري أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع النبي –صلى الله عليه وسلم– فلما انصرف تعرضوا له فتبسم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حين رآهم ثم قال (أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء؟) قالوا: أجل يا رسول الله، قال: (فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم) (١٥)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (اقتربت الساعة، ولا يزداد الناس على الدنيا إلا حرصا، ولا يزدادون من الله إلا بعدا) (١٦) أي لا يزداد الناس على الدنيا إلا شحاً وإمساكاً لعماهم عن عاقبتها (ولا يزدادون من الله إلا بعداً) أي من رحمته لأن الدنيا مبعدة عن الآخرة لأنه يكرهها ولم ينظر إليها منذ خلقها والبخيل مبغوض إلى الله مبعود عنه (١٧)

وعن أَبَي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ –رضي الله عنه– أَنَّ النَّبِيَّ –صلى الله عليه وسلم– جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ فَقَالَ (إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا) فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ؟ [أي أتصير النعمة عقوبة] فَسَكَتَ النَّبِيُّ –صلى الله عليه وسلم– فَقِيلَ لَهُ مَا شَأْنُكَ تُكَلِّمُ النَّبِيَّ –صلى الله عليه وسلم– وَلَا يُكَلِّمُكَ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ، قَالَ: فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ [أي العرق] فَقَالَ (أَيْنَ السَّائِلُ) وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ فَقَالَ: (إِنَّهُ لَا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ [أي الجدول] يَقْتُلُ [وفي رواية يقتل حبطا، والحبط: انتفاخ البطن من كثرة الأكل] أَوْ يُلِمُّ [أي يقرب من الهلاك]، إِلَّا آكِلَةَ الْخَضْرَاءِ أَكَلَتْ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَثَلَطَتْ [أي أخرجت] وَبَالَتْ وَرَتَعَتْ [أي أنها إذا شبعت فثقل عليها ما أكلت تحيلت في دفعه بأن تجتر فيزداد نعومة ثم تستقبل الشمس فتحمى بها فيسهل خروجه، فإذا خرج زال الانتفاخ والتخمة فسلمت وهذا بخلاف من لم تتمكن من ذلك]، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ

خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ الْمُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ الْمِسْكِينَ وَالْيَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ، وَإِنَّهُ مَنْ يَأْخُذُهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (١٨)

قال الأزهري: هذا الحديث إذا فرق لم يكد يظهر معناه، وفيه مثلان أحدهما للمفرط في جمع الدنيا المانع من إخراجها في وجهها وهو ما تقدم أي الذي يقتل حبطا. والثاني المقتصد في جمعها وفى الانتفاع بها وهو آكلة الخضر فإن الخضر ليس من أحرار البقول التي ينبتها الربيع ولكنها الحبة والحبة ما فوق البقل ودون الشجر التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول، فضرب آكلة الخضر من المواشي مثلا لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها ولا يحمله الحرص على أخذها بغير حقها ولا منعها من مستحقها، فهو ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر، وأكثر ما تحبط الماشية إذا انحبس رجيعها في بطنها.

قال الحافظ في الفتح: يؤخذ منه أن الرزق ولو كثر فهو من جملة الخير، إنما يعرض له الشر بعارض البخل به عمن يستحقه والإسراف في إنفاقه فيما لم يشرع، وأن كل شيء قضى الله أن يكون خيرا فلا يكون شرا وبالعكس، ولكن يخشى على من رزق الخير أن يعرض له في تصرفه فيه ما يجلب له الشر (١٩)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (حلوة الدنيا مرة الآخرة، ومرة الدنيا حلوة الآخرة) (٢٠)

قال المناوي: (حلوة الدنيا مرة الآخرة، ومرة الدنيا حلوة الآخرة) يعني لا تجتمع الرغبة فيها والرغبة في الله والآخرة بها، ولا يسكن هاتان الرغبتان في محل واحد إلا طردت إحداهما الأخرى واستبدت بالمسكن، فإن النفس واحدة والقلب واحد، فإذا اشتغلت بشيء انقطع عن ضده، ولهذا قال روح الله عيسى: "لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد".

ويحتمل أن يكون المراد حلوة الدنيا ما تشتهيه النفس في الدنيا مرة الآخرة أي يعاقب عليه في الآخرة، ومرة الدنيا ما يشق عليه من الطاعات حلوة الآخرة أي يثاب عليه في الآخرة.

قال الإمام الرازي: "الجمع بين تحصيل لذات الدنيا ولذات الآخرة ممتنع غير ممكن، والله يمكن المكلف من تحصيل أيهما شاء، فإذا أشغله بتحصيل أحدهما فقط فقد فوت الأجر على نفسه". (٢١)

وقال –صلى الله عليه وسلم– (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء) (٢٢)

قال المناوي: (لو كانت الدنيا تعدل) وفي رواية لأبي نعيم: "لو وزنت الدنيا" (عند الله جناح بعوضة) مثل لغاية القلة والحقارة (ما سقى منها الكافر شربة ماء) أي لو كان لها أدنى قدر ما متع الكافر منها أدنى تمتع، هذا أوضح دليل وأعدل شاهد على حقارة الدنيا.

قال بعض الصالحين: أدنى علامات الفقر لو كانت الدنيا بأسرها لواحد فأنفقها في يوم واحد ثم خطر له أنه يمسك منها مثقال حبة من خردل لم يصدق في فقره.

وقيل لحكيم: أي خلق الله أصغر؟ قال: الدنيا إذ كانت لا تعدل عند الله جناح بعوضة، فقال السائل: من عظم هذا الجناح فهو أحقر منه.

وقال علي كرم الله وجهه: والله لدنياكم عندي أهون من عراق خنزير في يد مجزوم.

فعلى العبد أن يذكر هذا قولاً وفعلاً في حالتي العسر واليسر، وبه يصل إلى مقام الزهد الموصل إلى الرضوان الأكبر، وإذا استحضر أنه سبحانه يبغضها مع إباحة ما أحله فيها من مطعم وملبس ومسكن ومنكح وزهد فيها لبغض الله إياها كان متقرباً إليه ببغض ما بغضه وكراهة ما كرهه والإعراض عما أعرض عنه وبه خرج الجواب عن السؤال المشهور، ما وجه التقرب إلى الله بالمنع مما أحله؟ ألا ترى أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق؟ (٢٣)

وكان –صلى الله عليه وسلم– دائما ما يقول لأصحابه: (ما أنا والدنيا وما أنا والرقم) (٢٤) (ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) (٢٥)

قال المناوي: (ما لي وللدنيا) أي ليس لي ألفة ومحبة معها، ولا أنها معي حتى أرغب فيها أو ألفة وصحبة لي مع الدنيا؟ وهذا قاله لما قيل له ألا نبسط لك فراشاً ليناً ونعمل لك ثوباً حسناً؟

(ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) أي ليس حالي معها إلا كحال راكب مستظل قال الطيبي: وهذا تشبيه تمثيلي ووجه الشبه سرعة الرحيل وقلة المكث ومن ثم خص الراكب.

ومقصوده أن الدنيا زينت للعيون والنفوس فأخذت بهما استحساناً ومحبة ولو باشر القلب معرفة حقيقتها ومعتبرها لأبغضها ولما آثرها على الآجل الدائم.

قال عيسى عليه الصلاة والسلام: "يا معشر الحواريين، أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر داراً؟ قالوا: يا روح الله ومن يقدر؟ قال: إياكم والدنيا فلا تتخذوها قراراً".

وقال الحكيم: جعل الله الدنيا ممراً والآخرة مقراً والروح عارية والرزق بلغة والمعاش حجة والسعي خيراً، ودعا من دار الآفات إلى دار السلام ومن السجن إلى البستان وذلك حال كل إنسان، لكن للنفس أخلاق دنية ردية تعمى عن كونها دار ممر وتلهى عن تذكر كون الآخرة دار مقر، ولا يبصر ذلك إلا من اطمأنت نفسه وماتت شهوته واستنار قلبه بنور اليقين فلذلك شهد المصطفى –صلى الله عليه وسلم– هذه الحال في نفسه ولم يضفها لغيره، وإن كان سكان الدنيا جميعاً كذلك لعماهم عما هنالك، ولهذا لما مر بقوم يعالجون خصاً قال: (ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك) (٢٦)

وكان من دعائه –صلى الله عليه وسلم–:

(اللهم من آمن بك وشهد أني رسولك فحبب إليه لقاءك وسهل عليه قضاءك وأقلل له من الدنيا، ومن لم يؤمن بك ويشهد أني رسولك فلا تحبب إليه لقاءك ولا تسهل عليه قضاءك وكثر له من الدنيا) (٢٧)

قال المناوي: (اللّهم من آمن بك) أي صدق بأنك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك (وشهد أني رسولك) إلى الثقلين (فحبب إليه لقاءك، وسهل عليه قضاءك) فيتلقاك بقلب سليم وخاطر منشرح ولا ينهمك في شيء من قضائك ويعلم أنه ما من شيء قدرته إلا وله وفيه خير كثيرة دينية فيحسن ظنه بك (وأقلل له من الدنيا) أي من زهرتها وزينتها ليتجافى بالقلب عن دار الغرور ويميل به إلى دار الخلود (ومن لم يؤمن ويشهد أني رسولك

فلا تحبب إليه لقاءك ولا تسهل عليه قضاءك وكثر له من الدنيا) وذلك هو غاية الشقاء فإن مواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة يورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها حتى تصير كالجنة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته (٢٨)

(اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما بلغنا به جنتك، ومن اليقين ما يهون علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا) (٢٩)

(ولا تجعل الدنيا أكبر همنا) فإن ذلك سبب للّهلاك وفي إفهامه أن قليل الهم بما لا بد منه من أمر المعاش مرخص فيه، بل مستحب (ولا مبلغ علمنا) بحيث تكون جميع معلوماتنا الطرق المحصلة للدنيا والعلوم الجالية لها، بل ارزقنا علم طريق الآخرة (٣٠)

وعن الحسن البصري أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد فإن الدنيا دار ظعن وليست بدار إقامة، وإنما أنزل إليها آدم من الجنة عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن فيها كالمداوي لجراحته يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلا، ويصبر على شدة الأذى مخافة طول البلاء.

واحذر هذه الدار الغرارة التي قد زينت بخدعها وتحلت بآمالها وتشوقت لخطابها وفتنت بغرورها، فأصبحت كالعروس المحلاة، العيون إليها ناظرة والقلوب إليها والهة والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر ولا الآخر على الأول مزدجر، ولا العارف بالله حين أخبره عنها مدكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته واغتر وطغى ونسي المعاد، شغل فيها لبه حتى زلت عنه قدمه وعظمت ندامته، وكبرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت بألمه وحسرات الفوت بغصته فذهب بكمده فلم يدرك منها ما طلب ولم يروح نفسه من التعب، خرج بغير زاد وقدم مهاد.

فاحذرها يا أمير المؤمنين وكن أسر ما تكون أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه إلى مكروه، فالسار فيها بأهلها غار والنافع منها غدا ضار، قد وصل الرجاء فيها بالبلاء وجعل البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالحزن لا يرجع منها ما ولى فأدبر ولا يدري ما هو آت فيستنظر.

أمانيها كاذبة وآمالها باطلة، وصفوها كدر وعيشها نكد وابن آدم منها على خطر إن عقل فهو من النعماء على حظر ومن البلاء على حذر، لو أن الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت الدنيا قد أيقظت النائم ونبهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عنها زاجر وفيها واعظ، فمالها عند الله قدر ولا وزن، ولا نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عرضت على نبيك محمد –صلى الله عليه وسلم– بمفاتيح خزائنها ولا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها كره أن يخالف على ربه أمره أو حب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختبارا وبسطها لأعدائه اغترارا فيظن المغرور بها القادر عليها أنه أكرم بها ونسي ما صنع الله لمحمد –صلى الله عليه وسلم– حين وضع الحجر على بطنه.

ولقد جاءت الرواية عن الله عز وجل أنه قال لموسى عليه السلام إذا رأيت الغنى لهذا مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين، وإن شئت ثنيت بصاحب الروح والكلمة عيسى بن مريم كان يقول: إدامي الجوع وشعاري الخوف ولباسي الصوف وصلائي في الشتاء مشارق الشمس وسراجي القمر ودابتي رجلاي وطعامي وفاكهتي ما أنبتت الأرض أبيت وليس عندي شيء، وأصبح وليس عندي شيء، وما على الأرض أغنى مني (٣١)

الهوامش

(١) رواه: الترمذي ـ كتاب الطب / حديث رقم ٢٠٣٦ج٤ص ٣٨١ وقال حسن غريب، الطبراني في المعجم الكبير ٤٢٩٦ ج٤ص ٢٥٢، الحاكم في المستدرك ٢٣٠/٤ رقم ٧٤٦٤ وقال

صحيح وأقره الذهبي، مسند الشهاب / للقضاعي ٢/ ٢٩٦رقم ١٣٩٧، الآحاد والمثاني / للشيباني ١٣/٤ رقم ١٩٥٧، صحيح ابن حبان ٤٤٣/٢ رقم ٦٦٩، كنز العمال رقم ٦٠٦٨، البيهقي في شعب الإيمان رقم ١٠٤٤٨، المنذري في الترغيب والترهيب رقم ٤٨٠٩ وقال حديث حسن، والحديث صححه الألباني في صحيح الترمذي رقم ١٦٥٩ وفي صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣١٨٠ وفي صحيح الجامع الصغير للسيوطي حديث رقم: ٢٨٢ وفي المشكاة رقم ٥١٧٨. وروى الحديث أيضا الإمام أحمد عن محمود بن لبيد والحاكم عن أبي سعيد الخدري بلفظ (إن الله تعالى ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه) وصححها الألباني في صحيح الجامع حديث رقم: ١٨١٤

(٢) إحياء علوم الدين – الإمام الغزالي ج٣ – أول كتاب ذم الدنيا ص ٢٠١ (٣) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي ج ٢ تفسير سورة آل عمران بتصرف يسير (٤) في ظلال القرآن ج ٦ سورة الحديد ص ٣٤٩١ (٥) انظر الظلال – سورة الحجر ص ٢١٥٤ – سورة الكهف ص ٢٢٦٨ – سورة طه ص ٢٣٥٧ / ج ٤ (٦) تفسير القاسمي – محاسن التأويل – تفسير سورة التوبة ج ٨/٧ ص ٢٣٦ ط دار الفكر (٧) أيسر التفاسير – أبو بكر الجزائري ج٣ ص ٢٦ ط دار السلام (٨) الظلال ص ٢٤٦٧ (٩) صيد الخاطر – ابن الجوزي فصل ٢٥٨ ص ٣٦٦ (١٠) فيض القدير – المناوي ٤١٥/٢ بتصرف يسير (١١) المصدر السابق (١٢) هو المنيب الواعي، شيبان أبو محمد الراعي، كان في العبادة فائقا وبالتوكل على ربه واثقا، قال ابن الجوزي في (صفة الصفوة) كان شيبان إذا أجنب وليس عنده ماء دعا ربه فجاءت سحابة فأظلته فاغتسل منها [انظر ترجمته في حلية الأولياء ٣١٧/٨ وصفة الصفوة ٣٠٦/٤] (١٣) رواه البخاري في الرقاق ٦٤٦/١١ فتح، ومسلم في كتاب الزكاة من حديث أبي هريرة (١٤) صيد الخاطر – ابن الجوزي فصل ٢٣٣ ص ٣٣٤ (١٥) رواه البخار ي ـ كتاب المغازي رقم ٣٧١٢ (١٦) رواه الحاكم عن ابن مسعود (حسن) انظر حديث رقم: ١١٤٦ في صحيح الجامع (١٧) فيض القدير للمناوي ١٥٥/٢ (١٨) رواه البخاري ـ كتاب الزكاة رقم ١٣٧٢ ورواه في كتاب الرقاق أيضا رقم ٦٤٢٧ (١٩) انظر فتح الباري – كتاب الرقاق – حديث رقم ٦٤٢٧ ج١١ (٢٠) رواه أحمد والطبراني والحاكم عن أبي مالك الأشعري (صحيح) انظر حديث رقم: ٣١٥٥ في صحيح الجامع. (٢١) فيض القدير – المناوي ٥٤٢/١ بتصرف يسير (٢٢) رواه الترمذي عن سهل بن سعد (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٢٩٢ في صحيح الجامع. (٢٣) فيض القدير – المناوي ٤٥٦/٢

(٢٤) رواه أبو داود رقم ٣٦٢٠ وأحمد عن ابن عمر(صحيح) انظر حديث رقم: ٥٥٥٥ في صحيح الجامع. وللحديث قصة فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أتى فاطمة –رضي الله عنه– فوجد على بابها سترا فلم يدخل، قال: وقلما كان يدخل إلا بدأ بها، فجاء علي –رضي الله عنه– فرآها مهتمة فقال ما لك قالت جاء النبي –صلى الله عليه وسلم– إلي فلم يدخل، فأتاه علي –رضي الله عنه– فقال: يا رسول الله إن فاطمة اشتد عليها أنك جئتها فلم تدخل عليها قال (وما أنا والدنيا وما أنا والرقم) فذهب إلى فاطمة فأخبرها بقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقالت قل لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– ما يأمرني به ؟ قال (قل لها فلترسل به إلى بني فلان) وكان سترا موشيا (٢٥) رواه أحمد والترمذي عن ابن مسعود. (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٦٦٨ في صحيح الجامع. (٢٦) فيض القدير – المناوي ٥٤١/٢ (٢٧) رواه الطبراني عن فضالة بن عبيد (صحيح) انظر حديث رقم: ١٣١١ في صحيح الجامع (٢٨) فيض القدير – المناوي ٤١٥/٢ (٢٩) رواه الترمذي والحاكم عن ابن عمر. (حسن) انظر حديث رقم: ١٢٦٨ في صحيح الجامع. (٣٠) فيض القدير – المناوي ٤٥٢/١ (٣١) حلية الأولياء أبو نعيم الأصبهاني ج٦ ص ٣١٤ / دار الكتاب العربي الطبعة الرابعة

العُجْب

عن أنس -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:
(لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العُجْب، العُجْب)
(١)

الكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان، والعجب إنما يكون بوصف هو كمال لا محالة، وللعالم بكمال نفسه في علم، أو عمل أو مال أو غيره حالات:

(أحدهما) أن يكون خائفا على زواله ومشفقا على تكدره أو سلبه من أصله، فهذا ليس بمعجب.

(والأخرى) أن لا يكون خائفا من زواله، لكن يكون فرحا به من حيث أنه نعمة من الله تعالى عليه لا من حيث إضافته إلى نفسه، وهذا أيضا ليس بمعجب

(وله حالة ثالثة) هي العجب، وهي أن يكون غير خائف عليه، بل يكون فرحا به، مطمئنا إليه، ويكون فرحه به من حيث أنه كمال ونعمة وخير ورفعة، لا من حيث أنه عطية من الله تعالى ونعمة منه، فيكون فرحه من حيث أنه صفته ومنسوب إليه بأنه له، لا من حيث أنه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه، فمهما غلب على قلبه أنه نعمة من الله متى شاء سلبها عنه زال العجب بذلك عن نفسه.

فإذن العجب هو: استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا وأنه منه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعادا يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالا بالعمل فكأنه يرى لنفسه على الله دالة.

والكبر يستدعي متكبرا به ومتكبرا عليه، أما العجب فلا يستدعي غير المعجب، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجبا ولا يتصور أن يكون متكبرا (٢)

وعن أبي وهب المروزي قال: سألت ابن المبارك عن الكبر فقال: أن تزدري الناس، وسألته عن العجب فقال: أن ترى أن عندك شيئا ليس ثم غيرك، قال: ولا أعلم في المصلين شيئا شر من العجب (٣)

قال تعالى: {فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم:٣٢]

وقال جل ذكره: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً} [النساء:٤٩]

فالتزكية: التطهير والتبرئة من القبيح فعلا وقولا.. قال القرطبي:

هذه الآيات تقتضي الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإعلام بأن الزاكي المزكى من حسنت أفعاله وزكاه الله عز وجل، فلا عبرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له، وفي صحيح مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميت ابنتي بَرَّةَ؛ فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نهى عن هذا الاسم، وسُميت برة؛ فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم) فقالوا: بم نسميها؟ فقال –صلى الله عليه وسلم–: (سموها زينب) (٤)

فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه، ويجري هذا المجرى ما قد كثر في هذه الديار المصرية من نعتهم أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية؛ كزكي الدين، ومحي الدين وما أشبه ذلك، لكن لما كثرت قبائح المسمين بهذه الأسماء ظهر تخلف هذه النعوت عن أصلها فصارت لا تفيد شيئا (٥)

وعن أم المؤمنين عائشة –رضي الله تعالى عنها– قالت: لبست مرة درعا لي جديدا، فجعلت أنظر إليه وأعجبت به، فقال أبو بكر –رضي الله عنه–: ما تنظرين، إن الله ليس بناظر إليك، قلت: ومم ذاك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة، قالت: فنزعته فتصدقت به، فقال أبو بكر: عسى ذلك أن يكفر عنك. (٦)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وثلاث مهلكات: هوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه) (٧)

قال المناوي: (وثلاث مهلكات) أي يردين فاعلهنّ في الهلاك (هوى متبع، وشح مطاع) هو أن يطيعه صاحبه في منع الحقوق التي أوجبها الله عليه في ماله (وإعجاب المرء بنفسه) قال القرطبي: وهو ملاحظة لها بعين الكمال والاستحسان مع نسيان منة الله، فإن وقع على الغير واحتقره فهو الكبر، وقال الغزالي: أحذرك ثلاثاً من خبائث القلب، هي الغالبة على متفقهة العصر، وهي مهلكات، وأمّهات لجملة من الخبائث سواها: الحسد والرياء والعجب. فاجتهد في تطهير قلبك منها، فإن عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز، ولا تظن أنه يسلم لك نية صالحة في تعلم العلم وفي قلبك شيء من الحسد والرياء والعجب.

فأما الحسد فالحسود هو الذي يشق عليه إنعام الله على عبد من عباده بمال أو علم أو محبة أو حظ حتى يحب زوالها عنه وإن لم يحصل له شيء منها، فهو المعذب الذي لا يرحم فلا يزال في عذاب، فالدنيا لا تخلو عن كثير من أقرانه، فهو في عذاب في الدنيا إلى موته، ولعذاب الآخرة أشد وأكبر.

وأما الهوى المتبع فهو طلبك المنزلة في قلوب الخلق لتنال الجاه والحشمة، وفيه هلك أكثر الناس.

وأما العجب فهو الداء العضال، وهو نظر العبد إلى نفسه بعين العز والاستعظام، ونظره لغيره بعين الاحتقار، وثمرته أن يقول أنا وأنا، كما قال إبليس، ونتيجته في المجالس التقدم والترفع وطلب التصدر، وفي المحاورة الاستنكاف من أن يرد كلامه، وذلك مهلك للنفس في الدنيا والآخرة.

وقال الزمخشري: الإعجاب هو فتنة العلماء، وأعظم بها من فتنة (٨)

كما يعلق المناوي على حديثنا هذا بقوله:

(لو لم تكونوا تذنبون لخفت عليكم) وفي رواية لخشيت (ما هو أكبر من ذلك: العجب، العجب) لأن العاصي يعترف بنقصه فترجى له التوبة، والمعجب مغرور بعمله فتوبته بعيدة، قال تعالى: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً} [الكهف:١٠٤]، ولأن دوام الطاعة يوقع فيه، ولهذا قيل: «أنين المذنبين أقرب إلى الله من زجل المسبحين» لأن زجلهم يشوبه الافتخار، وأنين أولئك يشوبه الانكسار والافتقار، والمؤمن حبيب الله يصونه ويصرفه عما يفسده إلى ما يصلحه، والعجب يصرف وجه العبد عن الله، والذنب يصرفه إليه، والعجب يقبل به على نفسه، والذنب يقبل به على ربه، لأن العجب ينتج الاستكبار، والذنب ينتج الاضطرار ويؤدي إلى الافتقار، وخير أوصاف العبد افتقاره واضطراره إلى ربه، فتقدير الذنوب –وإن كانت ستراً– ليست لكونها مقصودة لنفسها بل لغيرها، وهي السلامة من العجب التي هي خير عظيم.

قال بعض المحققين: ولهذا قيل «يا من إفساده إصلاح»، يعني إنما قدره من المفاسد فلتضمنه مصالح عظيمة احتقر ذلك القدر اليسير في جنبه لكونه وسيلة إليها، وما أدى إلى الخير فهو خير، فكل شر قدره الله لكونه لم يقصد بالذات، بل بالعرض لما يستلزمه من الخير الأعظم يصدق عليه بهذا الاعتبار أنه خير، وفيه دلالة على أن العبد لا تبعده الخطيئة عن الله، وإنما يبعده الإصرار والاستكبار والإعراض عن مولاه، بل قد يكون الذنب سبباً للوصلة بينه وبين ربه (٩)

يا من غلا في العجب والتيه وغره طول تماديه

أملى لك الله فبارزته ولم تخف غب معاصيه (١٠)

قالت أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنه–: لو كان العجب رجلاً لكان رجل سوء. (١١)

وقال علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–: التوفيق خير قائد، وحسن الخلق خير قرين، والعقل خير صاحب، والأدب خير ميراث، ولا وحشة أشد من العجب. (١٢)

وقال أبو الدرداء: لو أن عبداَ من عباد الله عز وجل قدم على الله بعمل أهل السماوات والأرضيين من أنواع البر والتقوى لم يزن ذلك مثقال ذرة مع ثلاث خصال: العجب، وإيذاء المؤمنين، والقنوط من رحمة الله. (١٣)

وكان يحيى بن معاذ يقول: إياكم والعجب، فإن العجب مهلكة لأهله، وإن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. (١٤)

وكان ذو النون يقول: أربع خلال لها ثمرة: العجلة، والعجب، واللجاجة، والشره. فثمرة العجلة الندامة، وثمرة العجب البغضة، وثمرة اللجاجة الحيرة، وثمرة الشره الفاقة. (١٥)

وقال عبد الله بن المبارك: اثنتان منجيتان واثنتان مهلكتان، فالمنجيتان: النية والنهي، فالنية أن تنوي أن تطيع الله فيما يستقبل، والنهي أن تنهى نفسك عما حرم الله عز وجل، والمهلكتان: العجب والقنوط. (١٦)

قال السري: إنما أذهب أكثر أعمال القراء العجب وخفي الرياء. (١٧)

وكان محمد بن واسع يقول: واصاحباه ذهب أصحابي، قيل له: يرحمك الله أليس قد نشأ شباب يقرءون القران ويقومون الليل ويصومون النهار ويحجون ويقرءون؟ فبزق وقال: أفسدهم العجب. (١٨)

ودخل رجل على عمر بن عبد العزيز –رضي الله عنه– فقال من سيد قومك؟ قال: أنا، فسكت عمر ثم قال: لو كنت سيدهم ما قلته. (١٩)

وقال الشافعي: التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من أخلاق اللئام. وقال أيضا: أرفع الناس قدرا من لا يرى قدره، وأكبر الناس فضلا من لا يرى فضله. (٢٠)

قال حاتم: لا أدري أيهما أشد على الناس: اتقاء العجب، أو الرياء، العجب داخل فيك، والرياء يدخل عليك، العجب أشد عليك من الرياء، ومَثلهما أن يكون معك في البيت كلب عقور، وكلب آخر خارج البيت، فأيهما أشد عليك الذي معك أو الخارج؟ فالداخل العجب، والخارج الرياء. (٢١)

وكسر العجب بأربعة أشياء

أولها: أن يرى التوفيق من الله تعالى، فهذا يحمله على الاشتغال بالشكر، ولا يعجب بنفسه.

الثاني: أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بها عليه، فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكر عليها، واستقل عمله ولا يعجب به.

الثالث: أن يخاف أن لا يتقبل منه، فإذا اشتغل بخوف القبول لا يعجب بنفسه.

الرابع: أن ينظر في ذنوبه التي أذنب قبل ذلك، فإذا خاف أن ترجح سيئاته على حسناته، فقد كسر عجبه، وكيف يعجب المرء بعمله ولا يدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب.

كان أبو عثمان سعيد بن إسماعيل يقول: صِدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق لدوام النظر إلى الخالق، والإخلاص أن تريد بقلبك وبعملك وعلمك وفعلك رضا الله تعالى، خوفا من سخط الله، كأنك تراه بحقيقة علمك، فإنه يراك حتى يذهب الرياء عن قلبك، ثم تذكر منة الله عليك إذا وفقك لذلك العمل حتى يذهب العجب من قلبك، وتستعمل الرفق في عملك حتى تذهب العجلة من قلبك. فقد قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه) (٢٢) (٢٣)

وقال أبو ذر الغفاري: زر القبور تذكر بها الآخرة، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة، وكل مع صاحب البلاء تواضعاَ لربك وإيماناَ به، والبس الخشن الضيق من الثياب لعل العجب والكبر لا يكونن لهما فيك مساغاَ. (٢٤)

وقال سهل بن عبد الله التستري: لم يتخلص من هذه الثلاثة إلا صدّيق: (العجب، والذكر، والدعوى) ولم يتخلص منها إلا من عرف نعم الله عليه في مسالك الروح، وعرف تقصيره في أداء الشكر، فمن كان هكذا سلم. (٢٥)

وقال إبراهيم بن أحمد: حلاوة الطاعات للمخلص مذهبة لوحشة العجب (٢٦)

المصادر والهوامش

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ج: ٥ ص: ٤٥٣ برقم ٧٢٥٥، والقضاعي في مسند الشهاب ج: ٢ ص: ٣٢١ برقم ١٤٤٧، والهيثمي في مجمع الزوائد ج: ١٠ ص: ٢٦٩ وقال رواه البزار وإسناده جيد، والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ج: ٣ ص: ٣٧١ برقم ٥١٢٦ والمنذري في الترغيب والترهيب ج: ٣ ص: ٣٥٨ برقم ٤٤٣١ وقال رواه البزار بإسناد جيد، وقال المناوي في فيض القدير ج٣ ص ٣٥٤: قال الحافظ العراقي: فيه سالم أو سلام بن أبي الصهباء قال البخاري منكر الحديث وأحمد حسن الحديث ورواه أيضاً باللفظ المذكور ابن حبان في الضعفاء والديلمي في مسند الفردوس وطرقه كله ضعيفة ولهذا قال في الميزان عند إيراده: ما أحسنه من حديث لو صح وكان ينبغي للمصنف تقويتها بتعددها الذي رقاه إلى رتبة الحسن ولهذا قال في المنار:هو حسن بها بل قال المنذري: رواه البزار بإسناد جيد . والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع فقال (حسن) انظر حديث رقم: ٥٣٠٣ في صحيح الجامع للسيوطي / الألباني

(٢) إحياء علوم الدين ـ الغزالي / كتاب ذم الكبر والعجب ج٣ ص ٣٢٦ ط دار الحديث . القاهرة / بتصرف (٣) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٣٠٣ برقم ٨٢٦٠، تذكرة الحفاظ ج: ١ ص: ٢٧٨ (٤) صحيح مسلم بنحوه ـ كتاب الآداب برقم ٣٩٩١

(٥) الجامع لأحكام القرآن / القرطبي / ط دار الغد العربي ج٢ ص ١٩١٠ بتصريف يسير (٦) حلية الأولياء ج: ١ ص: ٣٧ (٧) قال السيوطي في الجامع الصغير رواه (أبو الشيخ في التوبيخ ـ المعجم الأوسط للطبراني) عن أنس. (حسن) انظر حديث رقم: ٣٠٣٩ في صحيح الجامع. للألباني (٨) فيض القدير للمناوي ٦٥٧/٢ بتصريف (٩) المناوي / فيض القدير ٥٧٦/٢ (١٠) أبو بكر بن طاهر الأبهري / تفسير القرطبي ج: ١٩ ص: ٢٤٦ (١١) الفردوس بمأثور الخطاب ج: ٣ ص: ٣٤٠ برقم ٥٠٢٦ (١٢) شعب الإيمان ج: ٤ ص: ١٦١ برقم ٤٦٦١ (١٣) الفردوس بمأثور الخطاب ج: ٣ ص: ٣٦٤ برقم ٥١٠٢ (١٤) شعب الإيمان ج: ٥ ص: ٤٥٢ برقم ٧٢٤٨ (١٥) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٢٩٤ برقم ٨٢١٥ (١٦) حلية الأولياء ج: ٧ ص: ٢٩٨ (١٧) شعب الإيمان ج: ٥ ص: ٣٥٦ برقم ٦٩٢٥

(١٨) كتاب الزهد لابن أبي عاصم ج: ١ ص: ٢٧٦ (١٩) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٣٠٤ برقم ٨٢٦٢ (٢٠) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٣٠٤ برقم ٨٢٦٣ (٢١) حلية الأولياء ج: ٨ ص: ٧٦ (٢٢) أورده السيوطي في الجامع الصغير عن أنس. وقال الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٦٥٤ في صحيح الجامع. (٢٣) شعب الإيمان ج: ٥ ص: ٣٤٨ برقم ٦٨٨٥ (٢٤) الفردوس

بمأثور الخطاب ج: ٢ ص: ٢٩٤ برقم ٣٣٤٣ (٢٥) شعب الإيمان ج: ٥ ص: ٣٤٨ برقم ٦٨٨٧ (٢٦) حلية الأولياء ج: ١٠ ص: ٣٦٤

الرياض النضرة من حديث كعب بن عُجرة

عن كعب بن عُجْرَةَ، قال: قال لي رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: (أُعيذُكَ باللهِ يا كعْبَ بن عُجْرَةَ من أُمَراءَ يكونون مِن بَعْدي، فَمَن غَشيَ أبوابَهم، فَصَدَّقَهُم في كَذِبِهِمْ، وأعانَهُم على ظُلمهم، فليس مني ولستُ منه، ولا يَرِدُ عليَّ الحوضَ، ومن غشي أبوابَهم أو لم يغشَ ولم يُصدِّقهم في كَذبهم، ولم يُعِنْهُمْ على ظلمهم، فهو مِنِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عليَّ الحوضَ. يا كعْبَ بن عُجْرَةَ! الصلاةُ بُرْهانٌ، والصومُ جُنَّةٌ حَصينةٌ، والصدقةُ تُطْفِئُ الخَطيئَةَ كما يُطْفئُ الماءُ النارَ، يا كعبَ بن عُجْرَةَ! إنَّه لا يَرْبو لَحْمٌ نَبَتَ من سُحْتٍ إلَّا كانتِ النَّارُ أوْلَى به) (١)

كانت عقيدة الولاء لكل بار مقسط، والبراء من كل جاحد ظالم، من أول الأسس التي رسخها الإسلام مع بزوغ شمسه في مجتمع جاهلي مظلم يأكل القوي فيه الضعيف، ونظرا لما حبى الله تعالى الأئمة من السلطة والسطوة كانت آفة النفوس حب التطلع إليهم والزلفى منهم، للنيل من عطاياهم واكتساب الوجاهة بين الناس مما يستلزم هذا من النفاق والمداهنة لهم وإظهار الرضا الكامل لكل ما يصدر عنهم، الأمر الذي يأتي على عقيدة الولاء والبراء بالكلية في نفس المسلم، وهذا ما رفضه الإسلام، فكره للمسلم أن يكون إمعة يبيع دينه ومبادئه وقيمه بعرض من الدنيا، فالمسلم الصادق لا يستمرئ باطل، ولا يرض بظلم بل يدور مع الحق أينما دار، قوام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم.

قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} [المجادلة:٢٢]

وقال –صلى الله عليه وسلم– (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه) (٢)

من هذا المنطلق كان الدخول على السلطان الظالم مذموم جدا في الشرع لأن الداخل عليه متعرض لأن يعصى الله تعالى إما بفعله، أو بسكوته وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفك عن هذه الأمور

أما الفعل: فالدخول عليهم في غالب الأحوال يكون في دور مغصوبة، وتخطيها والدخول فيها بغير إذن الملاك حرام، فإن فُرض كون الظالم في موضع غير مغصوب كالموات مثلا فإن كان تحته خيمة أو مظلة من ماله فهو حرام والدخول إليه غير جائز لأنه انتفاع بالحرام واستظلال به، فإن فُرض كل ذلك حلالا فلا يعصى بالدخول من حيث أنه دخول ولا بقوله «السلام عليكم» ولكن إن سجد أو ركع أو مثل قائما في سلامه وخدمته كان مكرما للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه، والتواضع للظالم معصية، فإن ترك الداخل جميع ذلك واقتصر على السلام فلا يخلو من الجلوس على بساطهم وإذا كان أغلب أموالهم حراما فلا يجوز الجلوس على فرشهم.

وأما السكوت: فهو أنه سيرى في مجلسهم من الفرش الحرير وأواني الفضة والحرير الملبوس عليهم وعلى غلمانهم ما هو حرام وكل من رأى سيئة وسكت عليها فهو شريك في تلك السيئة، بل يسمع من كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء والسكوت على جميع ذلك حرام، بل يراهم لابسين الثياب الحرام وآكلين الطعام الحرام وجميع ما في أيديهم حرام والسكوت على ذلك غير جائز فيجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلسانه إن لم يقدر بفعله، فإن قلت إنه يخاف على نفسه فهو معذور في السكوت.

فهذا حق، ولكنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر فإنه لو لم يدخل ولم يشاهد لم يتوجه عليه الخطاب بالحسبة حتى يسقط عنه بالعذر.

وأما القول: فهو أن يدعو للظالم أو يثني عليه أو يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أو باستبشار في وجهه أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه

والحرص على طول عمره وبقائه فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

فإن سلم من ذلك كله وهيهات، فلا يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه فإنه ينظر إلى توسعه في النعمة ويزدري نعم الله عليه وهذا مع ما فيه من اقتداء غيره به في الدخول ومن تكثير سواد الظلمة بنفسه وتجميله إياهم إن كان مما يتجمل به (٣)

ولهذا تكاثرت نصوص السنة النبوية في النهي عن الدخول على الأمراء:

فقال –صلى الله عليه وسلم–: (إياكم وأبواب السلطان فإنه قد أصبح صعبا هبوطا) (٤)

قال المناوي (إياكم وأبواب السلطان) أي اجتنبوها ولا تقربوا باباً منها (فإنه) يعني باب السلطان الذي هو واحد الأبواب (قد أصبح صعباً) أي شديداً (هبوطاً) أي منزلاً لدرجة من لازمه مذلاً له في الدنيا والآخرة ثم إن لفظ هبوطاً بالهاء وهو ما وقفت عليه في نسخ هذا الجامع والذي وقفت عليه في نسخ البيهقي والطبراني (حبوطاً) بحاء مهملة أي يحبط العمل والمنزلة عند الله تعالى.

قال الديلمي: وروي (خبوطاً) بخاء معجمة، والخبط أصله الضرب والخبوط البعير الذي يضرب بيده على الأرض وإنما كان كذلك لأن من لازمها لم يسلم من النفاق ولم يصب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينه أغلى منه وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم سيما من له لهجة مقبولة وكلام عذب وتفاصح وتشدق إذ لا يزال الشيطان يلقي إليه أن في دخولك لهم ووعظهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم الشرع ثم إذا دخل لم يلبث أن يداهن ويطري وينافق فيهلك ويهلك (٥)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى أبواب السلطان افتتن) (٦)

قال المناوي (من بدا جفا) أي من قطن بالبادية صار فيه جفاء الأعراب (ومن اتبع الصيد غفل) بفتحات أي من شغل الصيد قلبه وألهاه صارت فيه غفلة، والظاهر أن المراد

غفل عن الذكر والعبادة، قال الزمخشري: وليس الغرض ما تزعمه جهلة الناس أن الوحش يعم الجن فمن تعرّض لها خبلته وغفلته (ومن أتى أبواب السلطان افتتن) زاد في رواية أحمد (وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً) وذلك لأن الداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تنعمهم فيزدري نعمة الله عليه، أو يهمل الإنكار عليهم مع وجوبه فيفسق فتضيق صدورهم بإظهار ظلمهم وبقبيح فعلهم، وإما أن يطمع في دنياهم وذلك هو السحت.

قال عمار بن ياسر لعليٍّ –رضي الله عنهما–: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني؟ قال على أربع دعائم الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء ومن عمي نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشد وغرّته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يحتسب (٧)

وعن أم سلمة –رضي الله عنها– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ ومن أنكر سلم، ولكن من رضي وتابع قالوا أفلا نقاتلهم قال لا ما صلوا) (٨)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (سيلي أموركم من بعدي رجال يعرفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون فمن أدرك ذلك منكم فلا طاعة لمن عصى الله عز وجل) (٩)

وعن معاذ –رضي الله عنه– قال يا رسول الله أرأيت إن كان علينا الأمراء لا يستنون بسنتك ولا يأخذون بأمرك فما تأمرني في أمرهم فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (لا طاعة لمن لم يطع الله) (١٠)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) (١١)

قال العلامة ابن رجب: فدلت هذه الأحاديث كلها على وجوب إنكار المنكر بحسب القدرة عليه وأما إنكاره بالقلب فلابد منه فمن لم ينكر قلبه المنكر دل على ذهاب الإيمان من قلبه، وقد روى عن أبي جحيفة قال: قال علي: "إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بألسنتكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله"

وسمع ابن مسعود رجلا يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر فقال ابن مسعود: هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر يشير إلى أن معرفة المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد فمن لم يعرفه هلك.

وأما الإنكار باللسان واليد فإنما يجب بحسب الطاقة، قال ابن مسعود: يوشك من عاش منكم أن يري منكرا لا يستطيع له غير أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره.

وفي سنن أبي داود عن الْعُرْسُ بْنُ عَمِيرَةَ عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: قال: (إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها) (١٢)

فمن شهد الخطيئة فكرهها في قلبه كان كمن لم يشهدها إذا عجز عن إنكارها بلسانه ويده، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها وقدر على إنكارها ولم ينكرها، لأن الرضا بالخطايا من أقبح المحرمات ويفوت به إنكار الخطيئة بالقلب وهو فرض على كل مسلم لا يسقط عن أحد في كل حال من الأحوال.

فتبين بهذا أن الإنكار بالقلب فرض على كل مسلم في كل حال، وأما الإنكار باليد واللسان فبحسب القدرة كما في حديث أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا فلا يغيروا إلا يوشك الله أن يعمهم بعقابه) (١٣)

أخرجه أبو داود بهذا اللفظ وقال: قال شعبة فيه: ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أكثر ممن يعمله.

وخرج أيضا من حديث جرير سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول (مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعمل فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يغيّروه فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ قَبْلَ أن يموتوا) (١٤)

وخرجه الإمام أحمد ولفظه (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعمله فلم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب) (١٥)

وخرج أيضا من حديث عدي بن عمير قال سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: (إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه فإذا فعلوا ذلك عذب الله العامة والخاصة) (١٦)

وخرج أيضا هو وابن ماجة من حديث أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول (إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله عبدا حجته قال يا رب رجوتك وفرقت من الناس) (١٧)

فأما ما أخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث أبي سعيد أيضا عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال في خطبة: (ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه) (١٨) وبكي أبو سعيد وقال: قد والله رأينا أشياء فهبنا

وخرجه الإمام أحمد وزاد فيه (فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقال بحق أو يذكر بعظيم)

وكذلك خرج الإمام أحمد وابن ماجة من حديث أبي سعيد عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (لا يحقر أحدكم نفسه قالوا يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه قال يري أمرا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله له ما منعك أن تقول في كذا وكذا فيقول خشيت الناس فيقول الله إياي كنت أحق أن تخشى) (١٩)

فهذان الحديثان محمولان على أن يكون المانع له من الإنكار مجرد الهيبة دون الخوف المسقط للإنكار.

قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس آمر السلطان بالمعروف وأنهاه عن المنكر قال إن خفت أن يقتلك فلا، ثم عدت فقال لي مثل ذلك ثم عدت فقال لي مثل ذلك، وقال إن كنت لابد فاعلا ففيما بينك وبينه.

وقال طاووس: أتي رجل ابن عباس فقال ألا أقوم إلى هذا السلطان فآمره وأنهاه قال لا تكن له فتنة، قال أفرأيت إن أمرني بمعصية الله قال ذلك الذي تريد فكن حينئذ رجلا،

وقد ذكرنا حديث ابن مسعود الذي فيه (يخلف من بعدهم خلوف فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ...) الحديث وهذا يدل على جهاد الأمراء باليد

وقد استنكر الإمام أحمد هذا الحديث في رواية أبي داود وقال هو خلاف الأحاديث التي أمر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فيها بالصبر على جور الأئمة.

وقد يجاب عن ذلك بأن التغيير باليد لا يستلزم القتال وقد نص على ذلك أحمد أيضا في رواية صالح فقال التغيير باليد ليس بالسيف والسلاح فحينئذ جهاد الأمراء باليد أن يزيل بيده ما فعلوه من المنكرات مثل أن يريق خمورهم أو يكسر آلات اللهو التي لهم أو نحو ذلك أو يبطل بيده ما أمروا به من الظلم إن كان له قدرة على ذلك وكل ذلك جائز وليس هو من باب قتالهم ولا من الخروج عليهم الذي ورد النهي عنه فإن هذا أكثر ما يخشى منه أن يقتله الأمراء وحده.

وأما الخروج عليهم بالسيف فيخشى منه الفتن التي تؤدي إلى سفك دماء المسلمين، نعم إن خشي في الإقدام على الإنكار على الملوك أن يؤذي أهله أو جيرانه لم ينبغ له التعرض لهم حينئذ لما فيه من تعدي الأذى إلى غيره كذلك قال الفضيل بن عياض وغيره ومع هذا متي خاف على نفسه السيف أو السوط أو الحبس أو القيد أو النفي أو أخذ المال أو نحو ذلك من الأذى سقط أمرهم ونهيهم، وقد نص الأئمة على ذلك منهم مالك وأحمد وإسحاق وغيرهم قال أحمد لا يتعرض إلى السلطان فإن سيفه مسلول وقال ابن شبرمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كالجهاد يجب على الواحد أن يصابر فيه الاثنين ويحرم عليه الفرار منهما ولا يجب عليه مصابرة أكثر من ذلك.

فإن خاف السب أو سماع الكلام السيئ لم يسقط عنه الإنكار بذلك نص عليه الإمام أحمد وإن احتمل الأذى وقوي عليه فهو أفضل نص عليه أحمد أيضا وقيل له أليس قد جاء عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (ليس للمؤمن أن يذل نفسه) (٢٠).. أي يعرضها من البلاء ما لا طاقة له به، قال ليس هذا من ذلك ويدل على ما قاله ما خرجه أبو داود وابن ماجة والترمذي من حديث أبي سعيد عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) (٢١)

وأما حديث (لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه) فإنما يدل على أنه إذا علم أنه لا يطيق الأذى ولا يصبر عليه فإنه لا يتعرض حينئذ للأمراء وهذا حق وإنما الكلام فيمن علم من نفسه الصبر لذلك قاله الأئمة كسفيان وأحمد والفضيل بن عياض وغيرهم.

وقد روى عن أحمد ما يدل على الاكتفاء بالإنكار بالقلب.

قال في رواية أبي داود: نحن نرجو إن أنكر بقلبه فقد سلم وإن أنكر بيده فهو أفضل، وهذا محمول على أنه يخاف كما صرح بذلك في رواية غير واحد، وقد حكي القاضي أبو يعلى روايتين عن أحمد في وجوب إنكار المنكر على من يعلم أنه لا يقبل منه وصح القول بوجوبه وهذا قول أكثر العلماء، وقد قيل لبعض السلف في هذا فقال: يكون لك معذرة، وهذا كما أخبر الله تعالى عن الذين أنكروا على المعتدين في السبت أنهم قالوا لمن قال لهم ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤]

وقد ورد ما يستدل به على سقوط الأمر والنهي عند عدم القبول والانتفاع به ففي سنن أبي داود وابن ماجه والترمذي عن أبي ثعلبة الخشني أنه قيل له كيف تقول في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]

قال سألت عنها خبيرا أما والله لقد سألت عنها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: (بل ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوي متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام) (٢٢)

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن عمر قال: بينما نحن جلوس حول رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إذ ذكر الفتنة فقال: (إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك أصابعه، فقمت إليه فقلت له كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ فقال الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ بما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر خاصة نفسك ودع عنك أمر العامة) (٢٣)

وكذلك روى عن طائفة من الصحابة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ قالوا لم يأت تأويلها بعد إنما تأويلها في آخر الزمان.

وعن ابن مسعود قال: إذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض فيأمر الإنسان حينئذ نفسه فهو حينئذ تأويل هذه الآية.

وعن ابن عمر: قال هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم.

وقال جبير بن نفير عن جماعة من الصحابة قالوا: إذا رأيت شحا مطاعا وهوي متبعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك حينئذ بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت.

وعن مكحول قال: لم يأت تأويلها بعد: إذا هاب الواعظ وأنكر الموعوظ فعليك حينئذ بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت.

وعن الحسن أنه كان إذا تلا هذه الآية قال: يا لها من ثقة ما أوثقها ومن سعة ما أوسعها.

وهذا كله قد يحمل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف أو خاف الضرر سقط عنه، وكلام ابن عمر يدل على أن من علم أنه لا يقبل منه لم يجب عليه كما حكي رواية عن أحمد وكذا قال الأوزاعي: مُر من تري أن يقبل منك.

وقوله –صلى الله عليه وسلم– في الذي ينكر بقلبه (وذلك أضعف الإيمان) (٢٤) يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خصال الإيمان ويدل على أن من قدر على خصلة من خصال الإيمان وفعلها كان أفضل ممن تركها عجزا عنها ويدل على ذلك

أيضا قوله –صلى الله عليه وسلم– في حق النساء (أما نقصان دينها فإنها تمكث الأيام والليالي لا تصلي) (٢٥) يشير إلى أيام الحيض مع أنها ممنوعة حينئذ من الصلاة وقد جعل ذلك نقصا في دينها فدل على أن من قدر على واجب وفعله فهو أفضل ممن عجز عنه وتركه وإن كان معذورا في تركه والله أعلم (٢٦)

ولذلك اشتد نكير السلف الصالح على من يأتي أبواب السلاطين والأمراء الظلمة

– فعن علقمة بن وقاص أنه مر به رجل له شرف فقال له علقمة إن لك رحما وإن لك حقا وإني رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء وتتكلم عندهم بما شاء الله أن تتكلم به وإني سمعت بلال بن الحارث المزني صاحب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم القيامة وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عز وجل عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) (٢٧) قال علقمة فانظر ويحك ماذا تقول وماذا تكلم به فرب كلام قد منعني أن أتكلم به ما سمعت من بلال بن الحارث (٢٨)

وعن همام بن الحارث قال: كنا مع حذيفة فمر رجل فقالوا إن هذا يبلغ الأمراء الأحاديث فقال سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: (لا يدخل الجنة قتات) (٢٩)

وعن أبي الشعثاء قال: قيل لابن عمر إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره قال كنا نعد ذلك على عهد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– النفاق (٣٠)

وعن عروة قال: قلت لعبد الله بن عمر يا أبا عبد الرحمن إنا ندخل على الأمراء فيقضي أحدهم بالقضاء جورا فنقول وفقك الله وينظر إلى الرجل منا فيثني عليه فقال أما نحن معشر أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فكنا نعده نفاقا فما أدري ما تعدونه أنتم (٣١)

وقال علي بن أبي طالب –رضي الله عنه–: إياكم ومجالسة السلطان فإنه ذهاب الدين وإياكم ومعونته فإنكم لا تحمدون أمره (٣٢)

وقال أبو هريرة –رضي الله عنه–: إذا رأيت العالم يخالط السلطان مجالسة كثيرة فاعلم أنه لص (٣٣)

وقال سلمة بن قيس: لقيت أبا ذر فقال: يا سلمة بن قيس ثلاثا فاجتنبها، لا تجمع بين الضرة فإنك لن تعدل ولو حرصت، ولا تعمل على الصدقة فإن صاحب الصدقة زائد أو ناقص، ولا تغش ذا سلطان فإنك لا تصيب من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه (٣٤)

وعن حذيفة –رضي الله عنه– قال: العلماء أمناء الرسل على عباد الله عز وجل ما لم يخالطوا السلطان ويداخلوا الدنيا فإذا خالطوا السلطان وداخلوا الدنيا فقد خانوا الرسل فاحذروهم واخشوهم (٣٥)

وقال أيضا: إياكم ومواقف الفتن قيل وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله قال أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه (٣٦)

وعن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: من أراد أن يكرم دينه فلا يدخل على السلطان ولا يخلون بالنسوان ولا يخاصمن أصحاب الأهواء (٣٧)

وقال: يكون في آخر الزمان قوم يحضرون السلطان فيحكمون بغير حكم الله ولا ينهونه فعليهم لعنة الله

وقال أيضا: إن على أبواب السلطان فتنا كمبارك الإبل لا تصيبوا من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينكم مثله (٣٨)

وكان بشر يقول: إذا رأيت من همهم الأطعمة والطيب والتخلف إلى أبواب الأمراء ومخالطتهم فابغضهم في الله ودعهم، ونهى عن مخالطتهم، وقال قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (أعوذ بك من علم لا ينتفع به وعمل لا يتقبل وقلب لا يخشع وبطن لا تشبع) (٣٩)

وقال وهب لعطاء: إياك وأبواب السلطان فإن على أبواب السلطان فتنا كمبارك الإبل ولا تصيب من دنياهم شيئا إلا أصابوا من دينك مثله ثم قال يا عطاء إن كان يكفيك ما يغنيك فكل عيشك يكفيك وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس شيء يسعه يسعك إن بطنك بحر من البحور أو وادي من الأودية لا تشبعه إلا التراب (٤٠)

وقال الفضيل بن عياض: آفة القراء العجب واحذر أبواب الملوك فإنها تزيل النعم فقيل له يا أبا علي كيف تزيل النعم؟ قال: الرجل يكون عليه من الله نعمة ليست له إلى خلق حاجة، فإذا دخل إلى هؤلاء الملوك فرأى ما بسط الله لهم في الدور والخدم استصغر ما هو فيه ومن ثم تزيل النعم (٤١)

وقال أيضا: كنا نتعلم اجتناب السلطان كما نتعلم سورة من القرآن (٤٢)

وقال سفيان الثوري: إني لألقى الرجل ابغضه فيقول لي كيف أصبحت فيلين له قلبي فكيف بمن أكل ثريدهم ووطئ بساطهم (٤٣)

وقال: أتروني أخاف أن يضربوني إن أتيتهم ولكني أخاف أن يكرموني فيفتنوني (٤٤)

وقال: لولا أن تكون سبة ما صليت على من يأتي السلطان حتى يكونوا عبرة.

ومن أقواله رحمه الله تعالى:

النظر إلى وجه الظالم خطيئة (٤٦)

من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصي الله (٤٧)

إني لأعرف حب الرجل للدنيا من تسليمه على أهل الدنيا (٤٨)

وقال يوما لرجل: إن دعوك أن تقرأ عليهم قل هو الله أحد فلا تأنفهم قلت لأبي شهاب من يعني قال السلطان (٤٩)

وقال يوسف بن أسباط قال لي سفيان الثوري: إذا رأيت القارئ يلوذ بالسلطان فاعلم أنه لص، وإذا رأيته يلوذ بالأغنياء فاعلم أنه مراء، وإياك أن تخدع فيقال لك ترد مظلمة، تدفع عن مظلوم فإن هذه خدعة إبليس اتخذها القراء سلما (٥٠)

وعن محمد بن واسع قال: لقم العصب وسف التراب خير من الدنو من السلطان (٥١)

وقال: لولا أن تكون سبة ما صليت على من يأتي السلطان حتى يكونوا عبرة (٥٢)

وعن محمد بن يونس بن أبي إسحاق عن أبيه قال: من أغناه الله عز وجل عن أبواب الأمراء وأبواب الأطباء فهو سعيد (٥٣)

وعن سحنون قال: أكل بالمسكنة ولا أكل بالعلم، محب الدنيا أعمى لم ينوره العلم، ما أقبح بالعالم أن يأتي الأمراء، والله ما دخلت على السلطان إلا وإذا خرجت حاسبت نفسي فوجدت عليها الدرك وأنتم ترون مخالفتي لهواه وما ألقاه به من الغلظة والله ما أخذت ولا لبست لهم ثوبا (٥٤)

وقال أبو عثمان سعيد بن إسماعيل: ينبغي لمن يخاف الله عز وجل لا يأتي باب السلطان حتى يدعى فيأتيه وهو خائف من ربه عز وجل فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقول الحق كما جاء في الخبر (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) ثم ينصرف عنهم وهو خائف من ربه، إنما المفتتن أن يأتيهم راغبا طالبا للعز في الدنيا، طالبا للرئاسة في الناس، يتعزز بعز السلطان ويتكبر بسلطانه فإذا أتاهم داهنهم ومال إليهم ورضي بسوء فعلهم وأعانهم عليه وصدقهم الحق من قولهم، ورجع عنهم مفتخرا بهم آمنا لمكر الله معتزا بما نال من العز بهم، يؤذي الناس ويطغى فيهم ويتقوى عليهم باختلافه إلى السلطان فهذا الذي افتتن ونسي الآخرة وعصى ربه وأذى المؤمنين ونقص من دينه مالا يجبره الدنيا كلها لو كانت له (٥٥)

وقال أبو قلابة: يا أيوب احفظ عني ثلاث خصال، إياك وأبواب السلطان وإياك ومجالس الأهواء والزم سوقك فإن هذا من العافية (٥٦)

وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام الخير في العالم التقى، قمع الطمع عن القلب في الخلق، وتقريب الفقير والرفق به في التعليم والجواب، والتباعد من السلطان (٥٧)

وعن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تبلون نفسك بهن، لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله، ولا تدخل على امرأة وإن قلت أعلمها كتاب الله، ولا تصغين بسمعك لذي هوى فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه (٥٨)

وعن الوضين بن عطاء قال: أوحى الله عز وجل إلى يوشع بن نون إني مهلك من قومك مائة ألف أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم قال يا رب تهلك شرارهم فما بال خيارهم قال إنهم يدخلون على الأشرار فيؤاكلونهم ويشاربونهم ولا يغضبون بغضبي (٥٩)

الصلاة برهان

الصلاة عماد الدين وعصام اليقين ورأس القربات وغرة الطاعات، عمر الله بأنوارها قلوب العباد فهي المعين الذي لا ينضب والزاد الذي يزود القلب، إنها مفتاح الكنز الذي يغني ويقني ويفيض، إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة، إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود، إنها زاد الطريق ومدد الروح وجلاء القلب، إنها العبادة التي تفتح القلب وتوثق الصلة وتيسر الأمر وتشرق بالنور وتفيض بالعزاء والسلوى والراحة والاطمئنان.

وأي دعوة تريد أن تستقيم إلى الله فعليها أن تدلف من باب الاستقامة وبابها المحراب، وسجود المحراب واستغفار الأسحار ودموع المناجاة سيماء يحتكرها المؤمنون ولئن توهم الدنيوي جناته في الدينار والنساء والقصر المنيف فإن جنة المؤمن في محرابه ولذلك جعل النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا الحديث المبارك الصلاة من براهين إيمان الموحدين لأن بها تبدو قوة الإيمان في شهود ملازمة خدمة الأركان ومن كان أقواهم إيمانا كان أكثرهم وأطولهم صلاة وقنوتا وإيقانا.

ولما كان الحبيب المصطفى –صلى الله عليه وسلم– أكمل المؤمنين إيمانا كان أشدهم حبا للصلاة وأكثرهم لها أداء حتى أنها كانت قرة عينه وراحة قلبه فعن المغيرة بن شعبة قال –صلى الله عليه وسلم– (جعلت قرة عيني في الصلاة) (٦٠)

قال المناوي: لأنه كان حالة كونه فيها مجموع الهم على مطالعة جلال الله وصفاته فيحصل له من آثار ذلك ما تقر به عينه، سئل ابن عطاء الله هل هذا خاص بنبينا –صلى الله عليه وسلم– أم لغيره منه شرب فقال" "قرة العين بالشهود على قدر المعرفة بالمشهود، وليس معرفة كمعرفته فلا قرة عين كقرته"

ومحصوله أنه ليس من خصائصه –صلى الله عليه وسلم– لكنه أعطي في هذا المقام أعلاه وبذلك صرح الحكيم الترمذي فقال: "إن الصلاة إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم فلمحمد –صلى الله عليه وسلم– من ربه تعالى بحر ولما سواه أنهار وأودية فكل إنما ينال من الصلاة من مقامه فالأنبياء ثم خلفاؤهم الأولياء ينالون من الصلاة مقاماً عالياً وليس للعباد والزهاد والمتقين فيه إلا مقام الصدق ومجاهدة الوسوسة ومن بعدهم من عامة المسلمين لهم مقام التوحيد في الصلاة والوساوس معهم بلا مجاهدة والأنبياء وأعاظم الأولياء في مفاوز الملكوت وليس للشيطان أن يدخل تلك المفاوز وما وراء المفاوز حجب وبساتين شغلت القلوب بما فيها عن أن يخطر ببالهم ما وراءها" (٦١)

وفي حب الصلاة والشوق إليها يروي لنا التاريخ مواقف رائعة وصفحات مشرقة لسلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين

– قيل لنافع: ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟ قال لا تطيقونه الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما، وعن نافع أن ابن عمر كان إذا فاتته العشاء في جماعة أحيا بقية ليلته (٦٢)

– وعن عدي بن حاتم الطائي –رضي الله عنه– قال: ما دخل وقت صلاة حتى أشتاق إليها (٦٣)، وعنه قال ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء (٦٤)

– وعن محمد بن سيرين أن تميما الداري كان يقرأ القرآن في ركعة (٦٥)

– وعن مسروق قال: قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام أخيك تميم الداري صلى ليلة حتى أصبح أو كاد، يقرأ آية يرددها ويبكي {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن

نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون} [الجاثية: ٢١] (٦٦)

– وهذا ابن الزبير الذي يقول عنه مجاهد: كان ابن الزبير إذا قام إلى الصلاة كأنه عود (٦٧)

وقال ثابت الْبُنَانِيّ: كنت أمر بابن الزبير وهو خلف المقام يصلي كأنه خشبة منصوبة لا يتحرك.

ويروى أنه قسم الدهر على ثلاث ليال: فليلة هو قائم حتى الصباح وليلة هو راكع حتى الصباح وليلة هو ساجد حتى الصباح.

وعن مسلم بن يناق قال: ركع ابن الزبير يوما ركعة فقرأنا بالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة وما رفع رأسه.

وعن عمرو بن دينار قال: كان ابن الزبير يصلي في الحجر والمنجنيق يصب ثوبه (حجره) فما يلتفت.

وعن مجاهد قال: ما كان باب من العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير ولقد جاء سيل طبق البيت فطاف سباحة.

وعن عثمان بن طلحة قال: كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاثة: شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة (٦٨)

– وسيد التابعي أويس بن عامر القرني الذي سماه الشاطبي (سيد العباد بعد الصحابة) فعن الربيع بن خثيم أنه قال: أتيت أويسا القرني فوجدته قد صلى الصبح وقعد فقلت لا أشغله عن التسبيح فلما كان وقت الصلاة قام فصلى الظهر فلما صلى الظهر صلى إلى العصر فلما صلى العصر قعد يذكر الله تعالى إلى المغرب فلما صلى المغرب صلى إلى العشاء فلما صلى العشاء صلى إلى الصبح فلما صلى الصبح جلس فأخذته عينه ثم انتبه فسمعته يقول: "اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة وبطن لا تشبع" (٦٩)

– وأبو عائشة مسروق بن عبد الرحمن الهمداني، يقول أبو الضحى: كان مسروق يقوم فيصلي كأنه راهب وكان يقول لأهله: هاتوا كل حاجة لكم فاذكروها لي قبل أن أقوم إلى الصلاة (٧٠)

وكانت امرأة مسروق تقول: والله ما كان مسروق يصبح ليلة من الليالي إلا وساقاه منتفختان من طول القيام وكنت أجلس خلفه فأبكي رحمة له وكان رحمه الله إذا طال عليه الليل وتعب صلى جالسا ولا يترك الصلاة وكان إذا فرغ من صلاته يزحف كما يزحف البعير من الضعف (٧١)

وعن أبي إسحاق قال: حج مسروق فما بات إلا ساجدا.

وقال سعيد بن جبير: لقيني مسروق فقال يا سعيد ما بقي شيء يرغب فيه إلا أن نعفر وجوهنا في التراب وما آسى على شيء إلا السجود لله تعالى (٧٢)

– وهذا عامر بن عبد قيس الذي قال فيه كعب الأحبار" إنه راهب هذه الأمة.

وقال عنه الذهبي: كان عامر لا يزال يصلي من طلوع الشمس إلى العصر فينصرف وقد انتفخت ساقاه فيقول يا أمارة بالسوء إنما خلقت للعبادة (٧٣)

وعن الحسن أن عامرا كان يقول: من أقرئ؟ فيأتيه ناس فيقرئهم القرآن ثم يقوم فيصلي إلى الظهر ثم يصلي إلى العصر ثم يقرئ الناس إلى المغرب ثم يصلي ما بين العشائين ثم ينصرف إلى منزله فيأكل رغيفا وينام نومة خفيفة ثم يقوم لصلاته ثم يتسحر رغيفا ويخرج (٧٤)

وعن أبي الحسين المجاشعي قال: قيل لعامر بن عبد قيس أتحدث نفسك في الصلاة؟ قال أحدثها بالوقوف بين يدي الله ومنصرفي (٧٥)

– والربيع بن خُثيم المخبت الورع المتثبت القنع الحافظ لسره والضابط لجهره المعترف بذنبه المفتقر إلى ربه، تلميذ عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– الذي قال له: يا أبا يزيد لو رآك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لأحبك وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين (٧٦)

كان رحمه الله يقول: إني لآنس بصوت عصفور المسجد عن أنسي بزوجتي.

وكان إذا سجد كأنه ثوب مطروح فتجيء العصافير فتقع عليه (٧٧)

واشترى فرسا بثلاثين ألفا فغزا عليها ثم أرسل غلامه يسار يحتش وربط فرسه وقام يصلي فجاء الغلام فقال يا ربيع أين فرسك؟ قال سرقت يا يسار قال وأنت تنظر إليها؟! قال نعم يا يسار إني كنت أناجي ربي عز وجل فلم يشغلني عن مناجاة ربي شيء، اللهم إنه سرقني ولم أكن أسرقه اللهم إن كان غنيا فاهده وإن كان فقيرا فأغنه (ثلاث مرات) (٧٨)

وقال عبد الرحمن بن عجلان: بت عند الربيع بن خثيم ذات ليلة فقام يصلي فمر بهذه الآية {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون} [الجاثية:٢١] فمكث ليلته حتى أصبح ما جاوز هذه الآية إلى غيرها ببكاء شديد (٧٩)

وقال سفيان: بلغنا أن أم الربيع بن خثيم كانت تنادي ابنها الربيع فتقول يا ربيع ألا تنام؟ فيقول يا أمه من جن عليه الليل وهو يخاف البيات حق له أن لا ينام (٨٠)

ولما أصيب بالفالج (الشلل النصفي) ما منعه ذلك من شهود الجماعات وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقولون له يا أبا يزيد لقد رخص الله لك لو صليت في بيتك فيقول إنه كما تقولون، ولكني سمعته ينادي: حي على الفلاح فمن سمع منكم: حي على الفلاح فليجبه ولو زحفا، ولو حبوا (٨١)

والكثير والكثير من تلك المواقف لهؤلاء الأعلام.

الصوم جُنة حصينة

قال العلامة ابن رجب: قوله –صلى الله عليه وسلم– (الصوم جنة) هذا الكلام ثابت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– من وجوه كثيرة، وخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وخرجه الإمام أحمد بزيادة وهي (الصيام جنة وحصن حصين من النار) وخرجه من حديث عثمان بن أبي العاص –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال (الصوم جنة من النار كجنة أحدكم من

القتال) (٨٢) ومن حديث جابر –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (قال ربنا عز وجل: الصيام جنة يستجن بها العبد من النار) (٨٣)

فالجُنة هي ما يستجن به العبد كالمجن الذي يقيه عند القتال من الضرب، فكذلك الصيام يقي صاحبه من المعاصي في الدنيا كما قال عز وجل: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون} [البقرة:١٨٣]

فإذا كان له جنة من المعاصي كان له في الآخرة جنة من النار، ومن لم يكن له جنة في الدنيا من المعاصي لم يكن له جنة في الآخرة من النار.

وخرجه ابن مردويه من حديث علي –رضي الله عنه– مرفوعا قال: (بعث الله يحيى بن زكريا إلى بني إسرائيل بخمس كلمات) فذكر الحديث بطوله وفيه (إن الله يأمركم أن تصوموا ومثل ذلك كمثل رجل مشى إلى عدوه وقد أخذ للقتال جنة فلا يخاف من حيث ما أتي) (٨٤)

وخرجه من وجه آخر عن علي –رضي الله عنه– موقوفا وفيه قال: (الصيام مثله كمثل رجل أبصره الناس فاستحد في السلاح حتى ظن أن لن يصل إليه سلاح العدو فكذلك الصيام جنة) (٨٥)

وقال ابن حجر في فتح الباري: وقد تبين بهذه الروايات متعلق هذا الستر وأنه من النار وبهذا جزم بن عبد البر وأما صاحب (النهاية) فقال: "معنى كونه جنة أي يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات".

وقال القرطبي: جنة أي سترة يعني بحسب مشروعيته فينبغي للصائم أن يصونه مما يفسده وينقص ثوابه وإليه الإشارة بقوله (فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث.... الخ)

ويصح أن يراد أنه سترة بحسب فائدته وهو إضعاف شهوات النفس وإليه الإشارة بقوله (يدع شهوته ...الخ)

ويصح أن يراد أنه سترة بحسب ما يحصل من الثواب وتضعيف الحسنات.

وقال عياض في (الإكمال): معناه ستره من الآثام أو من النار أو من جميع ذلك.

وبالأخير جزم النووي وقال ابن العربي: إنما كان الصوم جنة من النار لأنه إمساك عن الشهوات والنار محفوفة بالشهوات فالحاصل أنه إذا كف نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساترا له من النار في الآخرة.

وأشار ابن عبد البر إلى ترجيح الصيام على غيره من العبادات فقال: حسبك بكون الصيام جنة من النار فضلا.

وروى النسائي بسند صحيح عن أبي إمامة قال: قلت يا رسول الله مرني بأمر آخذه عنك قال: (عليك بالصوم فإنه لا مثل له) وفي رواية: (لا عدل له).

والمشهور عند الجمهور ترجيح الصلاة (٨٦)

وقال المناوي: (الصوم جنة) بضم الجيم وقاية في الدنيا من المعاصي بكسر الشهوة وحفظ الجوارح وفي الآخرة من النار لأنه يقمع الهوى ويردع الشهوات التي هي من أسلحة الشيطان فإن الشبع مجلبة للآثام منقصة للإيمان، ولهذا قال –صلى الله عليه وسلم– (ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه) فإذا ملأ بطنه انتكست بصيرته وتشوشت فكرته لما يستولي على معادن إدراكه من الأبخرة الكثيرة المتصاعدة من معدته إلى دماغه فلا يمكنه نظر صحيح ولا يتفق له رأي صالح وقد يقع في مداحض فيروغ عن الحق كما أشار إليه خبر: "لا تشبعوا فتطفئوا نور المعرفة من قلوبكم".

وغلب عليه الكسل والنعاس فيمنعه عن وظائف العبادات وقويت قوى البدن وكثرت المواد والفضول فينبعث غضبه وشهوته وتشتد مشقته لدفع ما زاد على ما يحتاجه بدنه فيوقعه ذلك في المحارم.

قال بعض الأعلام: صوم العوام عن المفطرات، وصوم الخواص عن الغفلات، وصوم العوام جنة عن الإحراق، وصوم الخواص جنة لقلوبهم عن الحجب والافتراق (٨٧)

وفي تعليقه على حديث: (الصوم جنة يستجن بها العبد من النار) قال المناوي: (الصوم جنة يستجن بها العبد من النار) وأصل الجنة بالضم الترس شبه الصوم به لأنه يحمي الصائم عن الآفات النفسانية في الدنيا وعن العقاب في الأخرى.

قال القاضي: والجنة بالضم الترس وبالكسر الجنون وبالفتح الشجر المظل وأطلقت على البستان بما فيها من الأشجار وعلى دار الثواب لما فيها من البساتين وثلاثيتها مأخوذ من الجن بمعنى الستر (٨٨)

وكما أن الصوم جنة للنفس من الآثام في الدنيا والنار في الآخرة فهو جنة للبدن من الأمراض والآفات.

فقد تعددت الأبحاث الطبية التي تناولت الدور الهام الذي يقوم به الصوم في صحة الأبدان مؤكدة أن صوم رمضان يريح الجهاز الهضمي من عناء العمل طوال عام كامل فيرتاح تبعا له القلب والكلى والرئتين والغدد الصماء والجملة العصبية ويقل الوزن الذي يشكل مأساة لمرضى السمنة وآلام المفاصل والركبة وضعف الخصوبة، ويعد قلة مستوى الماء بالجسم وخاصة الجلد من أهم العوامل التي تقهر العديد من الأمراض الجلدية كحب الشباب وإكزيما الجلد ومشاكل البشرة الدهنية وقشور الشعر.

كما أثبت الباحثون أن الصيام له علاقة وثيقة بطول العمر ففي أشهر الدراسات العالمية المتعلقة بالمعمرين والتي أجريت على معمري قرية (فيلكا بامبا) في دولة اكوادور بأمريكا الجنوبية (بها ٣٪ من السكان ممن تعدوا سن المائة) ومعمري منطقة القوقاز الإسلامية ومعمري منطقة الهونزا بكشمير الواقعة تحت حكم الباكستان، لقد لاحظ الباحثون أن المعمرين في هذه المناطق يلتزمون في حياتهم –إلى جانب نظام الصوم المتكرر– نظاما غذائيا بسيطا يعتمد على خفض السعرات الحرارية إذ لا يتجاوز متوسط السعرات اليومي ١٢٠٠ سعرا مقابل ٢٤٠٠سعر لدى الفرد العادي وقد استلفت نظر أخصائي القلب العالمي (د/ ميجيل سالفادور) الطبيب الإكوادوري الشهير أن أهل منطقة فيلكا بامبا سالفة الذكر يعمدون في مواجهة أي علة من العلل إلى الصوم كاستراتيجية أساسية مع تناول بعض الأعشاب.

وعندما نسترجع في أذهاننا حياة عظماء المعمرين في العالم لا نجد غير الصوم وقلة الطعام أسلوبا أمثل لحياتهم.

فهذا شيخ المعمرين (ميشيل أنجلوا) الذي يقول _ حين سئل ذات مرة عن السر في صحته الجيدة وتمتعه بنشاط غير عادي بعد أن تجاوز سن التسعين: إنني أعزو احتفاظي بالصحة والقوة والنشاط في سنوات كهولتي إلى أنني أمارس الصوم بين حين وآخر ففي كل عام أصوم شهرا وفي كل شهر أصوم أسبوعا وفي كل أسبوع أصوم يوما وفي كل يوم آكل وجبتين بدلا من ثلاث.

ويقول المعمر المجري (بنج): إن تقشفي في المعيشة وتمسكي بأبسط المأكولات كان من أهم ما تتميز به حياتي عن حياة الآخرين فعلى الرغم من ثرائي الوفير وتوافر أسباب الحياة المنعمة لي إلا أنني قد حييت حياة خالية من الإسراف معظم أيامي وكان غذائي المحبوب التمر واللبن كما أتناول الخبز الجاف والجزر وكنت أصوم فترات متعددة في كل عام فجنبت نفسي ويلات المرض ومتاعب الشيخوخة.

ومن هنا اتضح أننا بفضل الصوم نصبح أكثر شبابا وحيوية وأطول أعمارا لأن الحقيقة التي لا مراء فيها أن تحسنا شاملا يعم الجسد كله.

ولا ريب أن العلماء في رحلة بحثهم عن تفسير علمي سليم لهذه الظاهرة وضعوا نظريات كثيرة، ولكن يبدوا أنهم اكتشفوا مؤخرا أن هرمون الميلاتونين قد يكون هو أساس الظاهرة، فقد أظهر البحث المستفيض أن الصيام وخفض السعرات الحرارية بالغذاء ينشط إنتاج الميلاتونين في الأجسام مما يضفي عليها الحيوية والنشاط، بل لوحظ أيضا أن الصيام يبقى على معدلات إفراز الميلاتونين –على مدى سنوات العمر الطويلة– كما كانت في سن الشباب مما قد يفسر جزئيا علاقة الصوم بتأخير الشيخوخة.

فالميلاتونين هو حجر الزاوية الرئيسي في انتظام الإيقاع الأساسي للحياة لكل عضو وكل نسيج وكل خليه في الجسم. والمصدر الأساسي لإنتاج هذا الهرمون هو الغدة الصنوبرية التي تقع في منتصف قاع المخ ويتأثر إنتاجها لهذا الهرمون بالضوء والظلام حيث يتم إفراز الهرمون وفق نظام دوري محدد يتبع الليل والنهار.

وهناك مصدر آخر لإنتاج الميلاتونين يتمثل في القناة الهضمية وهذا النوع المعوي من الهرمون يختلف عن النوع الصنوبري حيث أنه ينتج بشكل ثابت نسبياً ويشكل قاعدة أساسيه لمستوى الهرمون في الدم على مدار اليوم ولا يتأثر إنتاجه بالنور والظلام. وإنتاج هذا النوع المعوي يتحسن كثيراً مع الصيام ومع الحد من السعرات الحرارية في الغذاء.

والوظيفة الأساسية لهذا النوع المعوي من الميلاتونين بالدرجة الأولى هو منع التأكسد كوسيلة للوقاية من الشوارد الحرة، فوفرة الطعام الدسم تعطل هذه الوظيفة الحيوية ولذا يصاحبها دوماً انطلاق كميات كبيرة من تلك الشوارد المشاغبة التي تجر الدمار على الخلايا مما يعجل بشيخوختها وموتها، لكن الصوم يقوم بالدور العكسي حينما يحفز إفراز الميلاتونين مضاد الشوارد الحرة الأعظم ومن ثم يساهم بدور وافر في حيوية الخلايا ويزيد متوسط أعمارها.

والشوارد الحرة هي كل جزئ أو ذرة فقدت إليكترونا واحدا منها بحيث تصبح من ذوات العدد الفردي من الإليكترونات مما يجعلها غير ثابتة إلى درجة هائلة وقابلة للاتحاد بمركبات أخرى وتمزيق تكوينها وإذا تواجدت هذه الشوارد بأعداد كبيرة فإنه بإمكانها تحطيم مكونات الخلية ومن ثم القضاء عليها.

والواقع أن عمليات التأكسد والتلف الذي يحدث في الخلية وتراكم نواتج هذه العمليات هو الذي ينتج عنه التدهور الذي نراه في الشيخوخة.

فتجعد الجلد مثلا إنما هو تعبير عن حدوث تكسير في بنية كولاجين الجلد بفعل الشوارد الحرة، وكذا يعبر ابيضاض الشعر عن عدوانها على بصيلات الشعر فتفقد قدرتها على إنتاج الصبغة الملونة، وهكذا على امتداد الجسم كله فإن نظرية الشوارد والشيخوخة تؤكد وجودها مما لم يعد ثمة شك لدى الباحثين على أن الميلاتونين يعد أكفأ وسيلة لكبح جماح الشوارد الحرة ووقف ضررها.

كما أن الميلاتونين المفرز بفعل الصوم يؤدى دورا كبيرا في الوقاية من الأورام السرطانية وفي مكافحة الأورام المتكونة كما أنه يزيد من كفاءة الجهاز المناعي ويجعل الصائمين يتمتعون

بمناعة قويه عن غيرهم وله دور أيضاً في انخفاض معدل الكوليسترول في الدم وعلاج ضغط الدم المرتفع وتقليل سرعة نبضات القلب ومن ثم راحته من عناء المجهود الزائد إلى حد كبير (٨٩)

الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار

والصدقة لغة تلتقي مع مادة الصدق في أصل المادة وفقه اللغة يؤكد ارتباط المادة بجميع ما تفرع عنها.

قال تعالى:

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١]

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد:١٨]

وقال –صلى الله عليه وسلم–

(من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها كما يربي أحدكم فَلوه حتى تكون مثل الجبل) (٩٠)

(صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة) (٩١)

(أحب الناس إلى الله أنفعهم وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه دينا أو تطرد عنه جوعا ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهرا ومن كف غضبه ستر الله عورته ومن كظم

غيظا ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضا يوم القيامة ومن مشي مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل) (٩٢)

آداب الصدقة (٩٣)

مدار هذه الآداب على الإحسان الذي هو أخص أبواب الدين كله:

أولا: فهم معناها ووجه الامتحان فيها: فالتلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود وشرط تمام الوفاء به لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد فإن المحبة لا تقبل الشركة وإنما يمتحن المحب بمفارقة المحبوب، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١]

ولهذا تصدق أبو بكر –رضي الله عنه– بجميع ماله ووفى –رضي الله عنه– بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله.

ولما كانت الصدقة عن ظهر غنى وكان الغني نوعان: مادي ومعنوي وهو أعلاهما وهو لخواص الناس فاز بقصب السبق من كان غني النفس ولو كان طاويا، وهذا لخواص الناس، بل لخواص خواصهم وهم من كان عياله على شاكلته يؤثرون كما يؤثر ويصبرون كما يصبر، ولقد كان للأنصار في هذا شأن عجيب امتدحهم الله من أجله، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]

ودون هذا القسم درجة الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعيم وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها.

والصدقة طهرة من البخل والشح، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]

وقال –صلى الله عليه وسلم–:

(ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى وثلاث مهلكات: هوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه) (٩٤)

وقال –صلى الله عليه وسلم– (وأي دواء أدوى من البخل) (٩٥)

وإنما تزول صفة البخل بأن تتعود النفس بذل المال، فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا، فالصدقة بهذا المعنى طهرة أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه ففي الصدقة طهر عن رذيلة البخل وأدران الشح ووصمة القسوة واكتساب للين والعطف على المحتاجين ومن فهم معناها شكر النعمة.

ثانيا: أن تكون الصدقة من كسب طيب: فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وأن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه ويراعي في الصدقة الكيف لا الكم، فقد يسبق الدرهم الواحد مائة ألف درهم من حيث الفضل والأجر.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:٢٦٧]

وقال تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢]

وقد روي عن عمر –رضي الله عنه– أنه أهدى جملا في أنفه حلقة فضة من أكرم أنواع الإبل قد أعطي فيه ثمانين بعيرا ولما قيل له كان يكفيك غيره قال: أردت إغاظة المشركين (٩٦)

وعن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال لبنيه: يا بني لا يهدين أحدكم من البدن شيئا يستحي أن يهديه لكريمه فإن الله أكرم الكرماء وأحق من اختير له. (٩٧)

ثالثا: أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] قيل المن أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعما عليه مع ذكرها بين الخلائق، والأذى هو التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف.

قال الفضيل: من المعروف أن ترى المنة لأخيك عليك إذا أخذ منك شيئا لأنه لولا أخذه منك ما حصل لك الثواب وأيضا فإنه خصك بالسؤال ورجا فيك الخير دون غيرك.

وقال الليث: من أخذ مني صدقة أو هدية فحقه علي أعظم من حقي عليه لأنه قبل مني قرباني إلى الله عز وجل.

وقال معاذ النسفي: من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب صدقته فهو ممن أبطل صدقته بالمن لأنه رأى نفسه على الفقير (٩٨)

فلا تنهر سائلا فلو عرفت ما يحمله لك من الخير لحملته في فؤادك لا على رأسك.

كان سفيان الثوري ينشرح إذا رأى سائلا على بابه ويقول: مرحبا بمن جاء يغسل ذنوبي.

وكان الفضيل يقول: يحملون أزوادنا إلى الآخرة بغير أجرة حتى يضعوها في الميزان بين يدي الله تعالى.

وكان بكر بن عبد الله المزني يطعم الضيف ثم يكسوه إذا أراد الانصراف ويقول: إن فضل إجابته إلى طعامي أعظم مما صنعت أنا معه.

وقالت أسماء بنت خارجة: ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط ولا صنعت طعاما قط فدعوت عليه قوما إلا كانوا أمن علي مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئا فاستكثرت شيئا أعطيته إياه.

وقال عمرو بن العاص –رضي الله عنه–: والله لرجل ذكرني ينام على شقه مرة وعلى شقة أخرى يراني موضعا لحاجته لأوجب علي حقا إذا سألنيها مني إذا قضيتها له.

وقال عبد العزيز بن مروان: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده أعظم من يدي عنده. (٩٩)

رابعا: استصغار العطية: فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال.

ويقال: إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجل والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل.

وقيل: لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور تصغيره، وتعجيله، وستره.

والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل

أما العلم: فهو أن يعلم أن الصدقة قليل من كثير فهو جدير أن يستحي منه فكيف يستعظمه؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره فليتأمل أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه؟ فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عين حق الله سبحانه؟ وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه؟

وأما العمل: فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئة الانكسار والحياء كهيئة من يطالب برد وديعة فيمسك بعضها ويرد البعض، لأن المال كله لله عز وجل

قالوا: أحي معروفك بإماتة ذكره وعظمه بالتصغير له.

وقال الربيع: ناول الشافعي إنسان رقعة يقول فيها: إنني بقال رأس مالي درهم وقد تزوجت فأعني فقال: يا ربيع أعطه ثلاثين دينارا واعذرني عنه فقلت أصلحك الله إن هذا يكفيه عشرة دراهم فقال: ويحك! وما يصنع بثلاثين؟ أفي كذا، أم في كذا – يعد ما يصنع في جهازه – أعطه (١٠٠)

خامسا: الإخلاص والنية الصالحة: فقد يدرك العبد بالنية الصالحة ما يحصل للمتصدق بالمال الكثير كما في حديث أبي كبشة الأنماري –رضي الله عنه– أنه سمع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: (ثلاث أقسم عليهن: ما نقص مال عبد من صدقة ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عز وجل عزا، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، وأحدثكم حديثا فاحفظوه إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل وعبد رزقه الله تعالى علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء) (١٠١)

وعن المغيرة قال: إن كان أويس القرني ليتصدق بثيابه حتى يجلس عريانا لا يجد ما يروح فيه إلى الجمعة.

وعن أَصْبَغُ بن زيد: كان أويس إذا أمسى تصدق بما في بيته من الفضل من الطعام والشراب ثم يقول: "اللهم من مات جوعا فلا تؤاخذني به، ومن مات عريا فلا تؤاخذني به".

وكان يقول في دعائه: اللهم إني أعتذر إليك اليوم من كل كبد جائعة وبدن عار فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني وليس لي شيء من الدنيا إلا ما على ظهري. ولم يكن على ظهره حينذاك إلا خرقة (١٠٢)

سادسا: أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة: فيعطيها للأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة.

قال –صلى الله عليه وسلم–: (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي) (١٠٣)

وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الزهاد دون غيرهم فقيل له: لو عممت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل فقال: لا هؤلاء قوم همهم لله سبحانه فإذا طرقتهما فاقة تشتت هم أحدهم فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلي من أن أعطي ألفا ممن همته الدنيا، فذكر هذا الكلام للجنيد فاستحسنه وقال: هذا ولي من أولياء الله تعالى وقال: ما سمعت منذ زمان كلاما أحسن من هذا، ثم حكي أن الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنيد مالا وقال: اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك، وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعون منه (١٠٤)

وقال عبد الله بن المبارك للفضيل بن عياض: لولاك وأصحابك ما اتجرت، وكان ينفق على الفقراء في كل سنة مائة ألف درهم (١٠٥)

ويعطيها لأهل العلم وطلبته المحتاجين للمال فإن ذلك إعانة لهم على طلب العلم

فعن حبان بن موسى قال: عوتب ابن المبارك فيما يفرق من المال في البلدان دون بلدة فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق طلبوا الحديث فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا فإن تركناهم ضاع علمهم وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد –صلى الله عليه وسلم–، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم (١٠٦)

ويعطي الصدقة لمن كان مستترا مخفيا حاجته لا يكثر البث والشكوى أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يعيش في جلباب التجمل.

قال تعالى ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]

إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به

قال العلامة القرطبي في تفسيره: والسحت في اللغة أصله الهلاك والشدة قال الله تعالى (فيسحتكم بعذاب) وقال الفرزدق:

وعَضُ زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مُسحتا أو مجلفُ

ويقال للحالق أسحت أي استأصل، وسمي المال الحرام سحتا لأنه يسحت الطاعات أي يذهبها ويستأصلها.

وقال الفراء أصله كَلَب الجوع يقال رجل مسحوت المعدة أي أكول فكأن بالمسترشي وآكل الحرام من الشره إلى ما يعطى مثل الذي بالمسحوت المعدة من النهم وقيل سمي الحرام سحتا لأنه يسحت مروءة الإنسان.

قلت والقول الأول أولى لأن بذهاب الدين تذهب المروءة ولا مروءة لمن لا دين له.

قال ابن مسعود وغيره السحت الرشا.

وقال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: رشوة الحاكم من السحت.

وعن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (كل لحم نبت بالسحت فالنار أولى به) (١٠٧) قالوا يا رسول الله وما السحت قال الرشوة في الحكم.

وعن ابن مسعود أيضا أنه قال: السحت أن يقضي الرجل لأخيه حاجة فيهدي إليه هدية فيقبلها.

وقال ابن خويز منداد: من السحت أن يأكل الرجل بجاهه. وذلك أن يكون له جاه عند السلطان فيسأله إنسان حاجة فلا يقضيها إلا برشوة يأخذها.

ولا خلاف بين السلف أن أخذ الرشوة على إبطال حق أو مالا يجوز سحت حرام.

وقال أبو حنيفة: إذا ارتشى الحاكم انعزل في الوقت وإن لم يعزل بطل كل حكم حَكم به بعد ذلك.

قلت وهذا لا يجوز أن يختلف فيه إن شاء الله لأن أخذ الرشوة منه فسق والفاسق لا يجوز حكمه والله أعلم، وقال عليه الصلاة والسلام (لعن الله الراشي والمرتشي) (١٠٨)

وعن علي –رضي الله عنه– أنه قال: السحت الرشوة وحلوان الكاهن والاستجعال في القضية.

وروي عن وهب بن منبه أنه قيل له الرشوة حرام في كل شيء؟ فقال: لا، إنما يكره من الرشوة أن ترشي لتعطى ما ليس لك أو تدفع حقا قد لزمك، فأما أن ترشي لتدفع عن دينك ودمك ومالك فليس بحرام.

قال أبو الليث السمرقندي الفقيه: وبهذا نأخذ لا بأس بأن يدفع الرجل عن نفسه وماله بالرشوة، وهذا كما روي عن عبد الله بن مسعود أنه كان بالحبشة فرشا دينارين وقال إنما الإثم على القابض دون الدافع.

قال المهدوي: ومن جعل كسب الحجام ومن ذكر معه سحتا فمعناه أنه يسحت مروءة آخذه. قلت الصحيح في كسب الحجام أنه طيب ومن أخذ طيبا لا تسقط مروءته ولا تنحط مرتبته وقد روى مالك عن حميد الطويل عن أنس أنه قال احتجم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حجمه أبو طيبة فأمر له رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بصاع من تمر وأمر أهله أن يخففوا عنه من خراجه.

قال ابن عبد البر: هذا يدل على أن كسب الحجام طيب لأن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لا يجعل ثمنا ولا جعلا ولا عوضا لشيء من الباطل، وحديث أنس هذا ناسخ لما حرمه النبي –صلى الله عليه وسلم– من ثمن الدم، وناسخ لما كرهه من إجارة الحجام، وروى البخاري وأبو داود عن ابن عباس قال: احتجم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأعطى الحجام أجره ولو كان سحتا لم يعطه (١٠٩)

وقال المناوي: سحت بضم فسكون وبضمتين أي حرام يسحت البركة أي يذهبها قال الزمخشري اشتقاقه من السحت وهو الإهلاك والاستئصال ومنه السحت لما لا يحل كسبه لأنه يسحت البركة، وفي خبر أن عمر أهدى إليه رجل فخذ جزور ثم جاءه يتحاكم مع آخر فقال يا أمير المؤمنين اقض لي قضاء فصلا كما فصل الفخذ من البعير فقال عمر: الله أكبر اكتبوا إلى جميع الآفاق هدايا العمال سحت (١١٠)

وقال في النهاية: السحت الحرام الذي لا يحل كسبه لأنه يسحت البركة أي يذهبها والسحت الرشوة في الحكم فالنار أي نار جهنم أولى به لأن الخبيث للخبيث فأسند ما ذكر إلى اللحم لا إلى صاحبه إشعارا بالغلبة وأنه حيث لا يصلح لدار الطيبين التي هي الجنة بل لدار الخبيثين التي هي النار هذا على ظاهر الاستحقاق أما إذا تاب الله عليه أو غفر له بغير توبة أو أرضى خصمه أو نالته شفاعة شفيع فهو خارج من هذا الوعيد (١١١)

وعن ابن عمرو قال –صلى الله عليه وسلم–: (الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقه بورك له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار) (١١٢)

وعن خولة بنت قيس قال –صلى الله عليه وسلم–: (إن هذا المال خضرة حلوة فمن أصابه بحقه بورك فيه ورب متخوض فيما شاءت نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيمة إلا النار) (١١٣)

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا} [المؤمنون:٥١] وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون} [البقرة:١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له) (١١٤)

قال العلامة ابن رجب: ومن أعظم ما يحصل به طيب الأعمال للمؤمن طيب مطعمه وأن يكون من حلال فبذلك يزكو عمله. وفي هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يقبل العمل ولا

يزكو إلا بأكل الحلال وإن أكل الحرام يفسد العمل ويمنع قبوله فإنه قال بعد تقريره إن الله لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى ({يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا} [المؤمنون:٥١] وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون} [البقرة:١٧٢]

والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال وبالعمل الصالح، فما كان الأكل حلالا فالعمل الصالح مقبول فإذا كان الأكل غير حلال فكيف يكون العمل مقبولا.

وما ذكره بعد ذلك من الدعاء وأنه كيف يتقبل مع الحرام فهو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام.

وقد اختلف العلماء في حج من حج بمال حرام ومن صلى في ثوب حرام هل يسقط عنه فرض الصلاة والحج بذلك وفيه عن الإمام أحمد رحمه الله روايتان وهذه الأحاديث المذكورة تدل على أنه لا يتقبل العمل مع مباشرة الحرام لكن القبول قد يراد به الرضا بالعمل ومدح فاعله والثناء عليه بين الملائكة والمباهاة به.

وقد يراد به حصول الثواب والأجر عليه، وقد يراد به سقوط الفرض به من الذمة فإن كان المراد ههنا القبول بالمعنى الأول أو الثاني لم يمنع ذلك من سقوط الفرض به من الذمة كما ورد أنه لا تقبل صلاة الآبق ولا المرأة التي زوجها عليها ساخط ولا من أتى كاهنا ولا من شرب خمرا أربعين يوما والمراد والله أعلم نفي القبول بالمعنى الأول أو الثاني وهو المراد والله أعلم من قوله عز وجل {إنما يتقبل الله من المتقين} [المائدة:٢٧]

ولهذا كانت هذه الآية يشتد منها خوف السلف على نفوسهم فخافوا أن لا يكونوا من المتقين الذين يتقبل الله منهم.

وسئل أحمد عن معنى المتقين فيها فقال: يتقي الأشياء فلا يقع فيما لا يحل.

وقال أبو عبد الله الساجي الزاهد رحمه الله: خمس خصال بها تمام العمل: الإيمان بمعرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال

فإن فقدت واحدة لم يرتفع العمل، وذلك إذا عرفت الله عز وجل ولم تعرف الحق لم تنتفع، وإذا عرفت الحق ولم تعرف الله لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق ولم تخلص العمل لم تنتفع، وإن عرفت الله وعرفت الحق وأخلصت العمل ولم يكن على السنة لم تنتفع، وإن تمت الأربع ولم يكن الأكل من حلال لم تنتفع.

وقال وهيب بن الورد: لو قمت مقام هذه السارية لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل في بطنك حلال أم حرام.

وأما الصدقة بالمال الحرام فغير مقبولة كما في صحيح مسلم عن ابن عمر –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لا يقبل الله صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول) (١١٥)

وفي الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (ما تصدق عبد بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ...) وذكر الحديث

ويروى من حديث دراج عن ابن حجيرة عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (من كسب مالا حراما فتصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه) (١١٦) خرجه ابن حبان

وفي مراسيل القاسم بن مخيمرة قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (من أصاب مالا من مأثم فوصل به رحمه وتصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع ذلك جميعا ثم قذف به في نار جهنم)

وروي عن أبي الدرداء ويزيد بن ميسرة أنهما جعلا مثل من أصاب مالا من غير حله فتصدق به مثل من أخذ مال يتيم وكسا به أرملة.

وسئل ابن عباس –رضي الله عنه– عمن كان على عمل فكان يظلم ويأخذ الحرام ثم تاب فهو يحج ويعتق ويتصدق منه فقال إن الخبيث لا يكفر الخبيث.

وكذا قال ابن مسعود –رضي الله عنه–: إن الخبيث لا يكفر الخبيث، ولكن الطيب يكفر الخبيث.

وقال الحسن: أيها المتصدق على المسكين ترحمه ارحم من قد ظلمت.

واعلم أن الصدقة بالمال الحرام تقع على وجهين

أحدهما: أن يتصدق به الخائن أو الغاصب ونحوهما على نفسه فهذا هو المراد من هذه الأحاديث أنه لا يتقبل منه يعني أنه لا يؤجر عليه، بل يأثم بتصرفاته في مال غيره بغير إذنه ولا يحصل للمالك بذلك أجر لعدم قصده ونيته كذا.

قال جماعة من العلماء منهم ابن عقيل من أصحابنا وفي كتاب عبد الرزاق من رواية زيد بن الأخنس الخزاعي أنه سأل سعيد بن المسيب قال: وجدت لقطة أفأتصدق بها؟ قال لا تؤجر أنت ولا صاحبها ولعل مراده إذا تصدق بها قبل تعريفها الواجب.

ولو أخذ السلطان أو بعض نوابه من بيت المال ما لا يستحقه فتصدق منه أو أعتق أو بنى به مسجدا أو غيره مما ينتفع به الناس فالمنقول عن ابن عمر أنه كالغاصب إذا تصدق بما غصبه.

كذلك قيل لعبد الله بن عامر أمير البصرة وكان الناس قد اجتمعوا عنده في حال موته وهم يثنون عليه ببره وإحسانه وابن عمر ساكت فطلب منه أن يتكلم فروى له حديثا: (لا يقبل الله صدقة من غلول) ثم قال له وكنت على البصرة.

وقال أسد بن موسى في كتاب الورع: حديث الفضيل بن عياض عن منصور عن تميم بن مسلمة قال: قال ابن عامر لعبد الله بن عمر أرأيت هذا العقاب التي نسهلها والعيون التي نفجرها ألنا فيها أجر؟ فقال ابن عمر أما علمت أن خبيثا لا يكفر خبيثا قط؟

حدثنا عبد الرحمن بن زياد عن أبي مليح عن ميمون بن مهران قال: قال ابن عمر لابن عامر وقد سأله عن العتق فقال مثلك مثل رجل سرق إبل حاج ثم جاهد بها في سبيل الله فانظر هل يقبل منه؟

وقد كان طائفة من أهل التشديد في الورع كطاووس ووهيب بن الورد يتوقون الانتفاع بما أحدثه مثل هؤلاء الملوك.

وأما الإمام أحمد رحمه الله فإنه رخص في ثواب لو له من المنافع العامة كالمساجد والقناطر والمصانع فإن هذه ينفق عليها من مال الفيء اللهم إلا أن يتيقن أنهم فعلوا أشياء من ذلك بمال حرام كالمكوس والغصوب ونحوهما فحينئذ يتوقى الانتفاع بما عمل بالمال الحرام.

ولعل ابن عمر –رضي الله عنهما– إنما أنكر عليهم أخذهم لأموال بيت المال لأنفسهم ودعواهم أن ما فعلوه منها بعد ذلك فهو صدقة منهم فإن هذا شبيه بالغصوب

وعلى مثل هذا يحمل إنكار من أنكر من العلماء على الملوك بنيان المساجد.

قال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله: رأيت بعض المتقدمين يسأل عمن كسب حلالا أو حراما من السلاطين والأمراء ثم بنى الأربطة والمساجد هل له ثواب؟ فأفتى بما يوجب طيب القلب المنفق وأنه له في إنفاق ما لا يملكه نوع سمسرة لأنه لا يعرف أعيان المغصوبين فيرد عليهم.

قال فقلت واعجبا من للفتوى لا يعرفون أصول الشريعة ينبغي أن ينظر في حال هذا المنفق أولا فإن كان سلطانا فما يخرج من بيت المال فقد عرفت وجوه مصارفه فكيف يمنع مستحقيه ويشغله بما لا يفيد من بناء مدرسة أو رباط؟

وإن كان من الأمراء أو نواب السلاطين فيجب أن يرد ما يجب رده إلى بيت المال وإن كان حراما أو غصبا فكل شيء يصرف فيه حرام والواجب رده على من أخذ منه أو ورثته فإن لم يعرف رده إلى بيت المال يصرف في المصالح أو في الصدقة ولم يحظ آخذه بغير الإثم انتهى.

وإنما كلامه في السلاطين الذين عهدهم في وقته الذين يمنعون المستحقين من الفيء حقوقهم ويتصرفون فيه لأنفسهم تصرف الملاك ببناء ما ينسبونهم إليهم من المدارس والأربطة ونحوهما مما قد لا يحتاج إليه ويخص به قوما دون قوم، فأما لو فرض إمام عادل

يعطي الناس حقوقهم من الفيء ثم يبني لهم ما يحتاجون إليه من مسجد أو مدرسة أو مارستان ونحو ذلك كان ذلك جائزا، ولو كان بعض من يأخذ المال لنفسه من بيت المال بنى بما أخذ منه بناء محتاجا إليه في حال يجوز البناء فيه من بيت المال لكنه ينسبه إلى نفسه فقد يتخرج على الخلاف في الغاصب إذا رد المال إلى المغصوب منه على وجه الصدقة والهبة هل يبرأ بذلك أم لا؟

وهذا كله إذا بنى على قدر الحاجة من غير سرف ولا زخرفة.

وقد أمر عمر بن عبد العزيز بترميم مسجد البصرة من بيت المال ونهاهم أن يتجاوزوا ما تصدع منه، وقال إني لم أجد للبنيان في مال الله حقا.

وروي عنه أنه قال لا حاجة للمسلمين فيما أضر بيت مالهم.

واعلم أن من العلماء من جعل تصرف الغاصب ونحوه في مال غيره موقفا على إجازة مالكه فإن أجاز تصرفه فيه جاز وقد حكى بعض أصحابنا رواية عن أحمد أنه من أخرج زكاته من مال مغصوب ثم أجازه المالك جاز وسقطت عنه الزكاة، وكذلك خرج ابن أبي الدنيا رواية عن أحمد أنه إذا أعتق عبد غيره عن نفسه ملتزما ضمانه في ماله ثم أجازه المالك جاز ونفذ عتقه وهو خلاف نص أحمد وحكى عن الحنفية أنه لو غصب شاة فذبحها لمتعته وقرانه ثم أجازه المالك أجزأت عنه.

الوجه الثاني من تصرفات الغاصب في المال المغصوب: أن يتصدق به عن صاحبه إذا عجز عن رده إليه وإلى ورثته.

فهذا جائز عند أكثر العلماء منهم مالك وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم.

قال ابن عبد البر: ذهب الزهري ومالك والثوري والأوزاعي والليث إلى أن الغال إذا تفرق أهل العسكر ولم يصل إليهم أنه يدفع إلى الإمام خمسة ويتصدق بالباقي روي ذلك عن عبادة بن الصامت ومعاوية والحسن البصري وهو يشبه مذهب ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما أنهما كانا يريان أن يتصدق بالمال الذي لا يعرف صاحبه وقال قد أجمعوا في

اللقطة على جواز الصدقة بها بعد التعريف وانقطاع صاحبها وجعلوه إذا جاء مخيرا بين الأجر والضمان وكذلك المغصوب انتهي

وروي عن مالك بن دينار قال سألت عطاء بن أبي رباح عمن عنده مال حرام ولا يعرف أربابه ويريد الخروج منه قال يتصدق به ولا أقول إن ذلك يجزي عنه.

قال مالك: كان هذا القول من عطاء أحب إلى من وزنة ذهبا.

وقال سفيان فيمن اشترى من قوم شيئا مغصوبا يرده إليهم فإن لم يقدر عليهم يتصدق به كله ولا يأخذ رأس ماله، وكذا قال فيمن باع شيئا ممن تكره معاملته لشبهة ماله قال يتصدق بالثمن، وخالفه ابن المبارك وقال يتصدق بالربح خاصة، وقال أحمد يتصدق بالربح، وكذا قال فيمن ورث مالا من أبيه وكان أبوه يبيع ممن تكره معاملته أنه يتصدق منه بمقدار الربح ويأخذ الباقي.

وقد روى عن طائفة من الصحابة نحو ذلك منهم عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– وعبد الله بن يزيد الأنصاري –رضي الله عنه– والمشهور عن الشافعي رحمه الله في الأموال الحرام أنها تحفظ ولا يتصدق بها حتى يظهر مستحقها.

وكان الفضيل بن عياض يرى أن من عنده مال حرام لا يعرف أربابه أنه يتلفه ويلقيه في البحر ولا يتصدق به وقال لا يتقرب إلى الله إلا بالطيب.

والصحيح الصدقة به لأن إتلاف المال وإضاعته منهي عنه وإرصاده أبدا تعريض له للإتلاف واستيلاء الظلمة عليه، والصدقة به ليست عن مكتسبه حتى يكون تقربا منه بالخبيث وإنما هي صدقة عن مالكه ليكون نفعه له في الآخرة حيث يتعذر عليه الانتفاع به في الدنيا (١١٧)

عن عائشة رضي الله عنها قالت كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاء بشيء فأكل منه أبو بكر فقال له الغلام تدري ما هذا فقال أبو بكر ما هو قال كنت تكهنت في الجاهلية لإنسان وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته فلقيني فأعطاني فهذا الذي اختلفا منه فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه (١١٨)

وعن مسروق قال سألت ابن مسعود عن السحت أهو الرشوة في الحكم قال لا ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون، ولكن السحت أن يستعينك رجل على مظلمة فيهدي لك فتقبله فذلك السحت (١١٩)

وعن محمد بن واسع أنه كتب إلى رجل من إخوانه: من محمد بن واسع إلى فلان بن فلان سلام عليك أما بعد فإن استطعت أن تبيت حين تبيت وأنت نقي الكف من الدم الحرام خميص البطن من الطعام الحرام خفيف الظهر من المال الحرام فافعل فإن فعلت فلا سبيل عليك إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق والسلام عليك (١٢٠)

وعن سعيد بن عبد العزيز قال: من أحسن فليرج الثواب ومن أساء فلا يستنكر الجزاء، من أخذ عزا بغير حق أورثه الله ذلا بحق، ومن جمع مالا بظلم أورثه الله فقرا بغير ظلم (١٢١)

وعن أنس قال: إذا أقرضت قرضا لأخيك فلا تركب دابته ولا تقبل هديته إلا أن يكون قد جرت بينك وبينه مخالطة قبل ذلك (١٢٢)

وعن سعيد بن أبي بردة عن أبيه قال: أتيت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال لي: ألا تجيء إلى البيت حتى أطعمك سويقا وتمرا فذهبنا فأطعمنا سويقا وتمرا، ثم قال: إنك بأرض الربا بها فاش فإذا كان لك على رجل دين فأهدى إليك حبلة من علف أو شعير أو حبلة من تبن فلا تقبله فإن ذلك من الربا (١٢٣)

وعن أنس بن مالك قال: ثلاث من كن فيه زوجه الله من الحور العين حيث شاء: كظم الغيظ، وصبر على السيوف، ورجل أشفا على مال حرام فتركه لله عز وجل (١٢٤)

وعن عبد الوهاب الثقفي قال: زعم مالك بن دينار أن رجلا سأل عطاء فقال: إني كنت غلاما فأصبت أموالا من وجوه لا أحبها فأنا أريد التوبة، قال: ردها إلى أهلها، قال: لا أعرفهم، قال: تصدق بها فمالك من ذلك أجر وما أدري هل تسلم من وزرها أم لا، قال وسألت مجاهدا فقال مثل ذلك (١٢٥)

وعن الربيع بن سعد قال: سأل رجل أبا جعفر عن رجل، قال: صديق لي أصاب مالا حراما فخالط كل شيء منه من أهله ومالهم ثم إنه عرف ما كان فيه فأقبل على الحج وجوار هذا البيت فما ترى له؟ قال أرى له أن يتقي الله ثم لا يعود (١٢٦)

الهوامش

(١) رواه الترمذي في آخر أبواب الصلاة / كتاب الجمعة / حديث رقم ٥٥٨ وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترمذي رقم ٥٠١، وصحيح الترغيب والترهيب رقم ٢٢٤٣، والحديث رواه أحمد في المسند ـ باقي مسند المكثرين ـ مسند جابر بن عبد الله (٢) رواه الترمذي عن أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– وقال الألباني (صحيح) حديث رقم: ١٩٧٣ في صحيح الجامع (٣) إحياء علوم الدين ـ الغزالي ـ ج ٢ ص ١٤٣ ط دار الحديث / مصر، باب ما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم بتصرف (٤) رواه الطبراني عن رجل من سليم (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٦٧٢ في صحيح الجامع (٥) فيض القدير ـ المناوي ٤٣٣/٢

(٦) رواه الطبراني عن ابن عباس حديث رقم: ٦١٢٤ في صحيح الجامع (٧) فيض القدير ـ المناوي ٤٣٥/٢ (٨) رواه مسلم ـ كتاب الإمارة رقم ٣٤٤٥ (٩) رواه الطبراني والحاكم عن عبادة بن الصامت (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٦٧٢ في صحيح الجامع (١٠) رواه أبو يعلى ورواه أحمد عن أنس (حم) عن أنس برواية صححها الألباني في صحيح الجامع (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٥٢١ في صحيح الجامع. (١١) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود ـ كتاب الإيمان رقم ٧١ (١٢) أخرجه أبو داود ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي ٤٣٤٥/٥ (حسن) انظر حديث رقم: ٦٨٩ في صحيح الجامع (١٣) رواه أبو داود ـ كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ٤٣٣٨/٤ وصححه الألباني في صحيح أبي داود رقم ٣٦٤٤ (١٤) رواه أبو داود ـ كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ٤٣٣٩/٤ وصححه الألباني في صحيح أبي داود رقم ٣٦٤٦ (١٥) أخرجه أحمد ٣٦٤/٤، ٣٦٦ (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٧٤٩ في صحيح الجامع (١٦) أخرجه أحمد ١٩٢/٤، والطبراني في المعجم الكبير ١٣٩/٧ وهو حديث حسن (١٧) أخرجه ابن ماجة ـ كتاب الفتن ٤٠١٧/٢ (صحيح) انظر حديث رقم: ١٨١٨ في صحيح الجامع (١٨) أخرجه الترمذي ـ كتاب الفتن، رقم ٢١٩١ قال الألباني في ضعيف سنن الترمذي ص ٢٤٨(ضعيف)

(١٩) أخرجه ابن ماجة ـ كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٠٠٨/٢ (ضعيف) انظر حديث رقم: ٦٣٣٢ في ضعيف الجامع (٢٠) رواه الترمذي عن حذيفة ـ كتاب الفتن ٢٢٥٤/٤ (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٧٩٧ في صحيح الجامع (٢١) أخرجه أبو داود ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي (صحيح) انظر حديث رقم: ١١٠٠ في صحيح الجامع (٢٢) أخرجه أبو داود ـ كتاب الفتن، باب الأمر والنهي ٤٣٤١/٤ (ضعيف) انظر حديث رقم: ٢٣٤٤ في ضعيف الجامع (٢٣) أخرجه أبو داود ـ كتاب الملاحم ـ باب الأمر والنهي ٤٣٤٢/٤ (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٧٠ في صحيح الجامع (٢٤) جزء من حديث رواه مسلم ـ كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ٤٩/١

(٢٥) أخرجه مسلم ـ كتاب الإيمان، باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات ٧٩/١ (٢٦) انتهى من جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي / الحديث الرابع والثلاثون ص ٤٢٨ وما بعدها بتصرف (٢٧) رواه أحمد والترمذي عن بلال بن الحارث (صحيح) انظر حديث رقم: ١٦١٩ في صحيح الجامع. (٢٨) صحيح ابن حبان رقم ٢٨٠ (٢٩) الحديث رواه أحمد عن حذيفة (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٦٧٢ في صحيح الجامع (٣٠) رواه ابن ماجة ـ كتاب الفتن رقم ٣٩٦٥ (٣١) المعجم الكبير ـ الطبراني رقم ١٣٢٦٤ (٣٢) الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي رقم ١٥٣٦ (٣٣) الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي رقم ١٠٧٧ (٣٤) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٩٤١١ (٣٥) الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي رقم ٤٢١٠ (٣٦) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٩٤١٣ (٣٧) سنن الدارامي رقم ٣٠١ (٣٨) الجامع لمعمر بن راشد ج١١ ص ٣١٧ المكتب الإسلامي (٣٩) شعب الإيمان للبيهقي ج ٢ ص ٣٠٧ رقم ١٨٩٣ والحديث روى بعضه الترمذي عن ابن عمرو (صحيح) انظر حديث رقم: ١٢٩٧ في صحيح الجامع (٤٠) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٩٤٠٨ (٤١) المصدر السابق رقم ١٨٥٩ (٤٢) المصدر السابق ج٢ ص٥٠ رقم ٩٤١٧ (٤٣) المصدر السابق ج٧ ص٥١ رقم ٩٤٢١ (٤٤) المصدر السابق ج٧ ص٥١ ٩٤٢٢ (٤٥) الورع لأحمد بن حنبل ج١ ص ١٩٣ (٤٦) المصدر السابق ج١ ص ٩٦ (٤٧) حلية الأولياء للأصبهاني ج ٧ ص٤٦ (٤٨) المصدر السابق (٤٩) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٩٤١٨ (٥٠) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٩٤١٩ (٥١) المصدر السابق رقم ٩٤٢٩ (٥٢) المصدر السابق رقم ٩٤٣١ (٥٣) المصدر السابق رقم ٩٤٣٣ (٥٤) سير أعلام النبلاء ـ الذهبي ـ مؤسسة الرسالة ج١٢ ص ٦٥ (٥٥) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٩٤٢٤

(٥٦) شعب الإيمان للبيهقي رقم ١٢٦٢ (٥٧) المصدر السابق رقم ١٩٢٩ (٥٨) حلية الأولياء للأصبهاني ج٤ ص ٨٥ (٥٩) شعب الإيمان للبيهقي رقم ٩٤٢٨ (٦٠) رواه الطبراني (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٠٩٨ في صحيح الجامع (٦١) فيض القدير للمناوي ٤٢٣/١ (٦٢) سير أعلام النبلاء ـ الذهبي ج٣ ص ٢١٥ ط مؤسسة الرسالة (٦٣) تعظيم قدر الصلاة ـ محمد بن نصر المروزي ج١ ص٣٣٩ (٦٤) سير أعلام النبلاء ج٣ ص ١٦٤

(٦٥) مصنف ابن أبي شيبة ج١ ص ٣٢٣ رقم ٣٦٩١ (٦٦) الزهد لابن المبارك ج١ ص٣١ رقم ٩٣ (٦٧) السنن الكبرى للبيهقي ج٢ ص ٢٨٠ رقم ٣٣٣٧ (٦٨) سير أعلام النبلاء ج٣ ص ٣٦٩ (٦٩) الزهاد الأوائل لمصطفى حلمي ٨٤-٨٩ والاعتصام للشاطبي ٣٠٩/١ وتنبيه المغترين ص ١١٥ (٧٠) حلية الأولياء ٩٥/٢ (٧١) تنبيه المغترين ٥٤ (٧٢) حلية الأولياء ج٢ ص٩٥ (٧٣) سير أعلام النبلاء ١٨/٤ (٧٤) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٦/٣ (٧٥) سير أعلام النبلاء ١٧/٤ (٧٦) حلية الأولياء ١٠٦/٢ (٧٧) المدهش لابن الجوزي ص ٤٧٢ (٧٨) الزهد لهناد ص ٢٣١، مختصر قيام الليل ص ٢٧ (٧٩) المصدر السابق

(٨٠) المصدر السابق (٨١) الحلية ١١٣/٢، ١١٤ (٨٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجة ـ كتاب الصيام، باب فضل الصيام ١٦٣٩/١ وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٨٧٩ (٨٣) حديث حسن أخرجه أحمد ٣٤١/٣ والبيهقي في شعب الإيمان ٢٨٩/٣ وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٨٨٠ (٨٤) حديث صحيح أخرجه الترمذي في كتاب الأمثال باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام ٢٨٦٣/٥ (٨٥) جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي / الحديث التاسع والعشرون ص ٣٦٦ بتصرف (٨٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٣ ص ٣٤٥ (٨٧) فيض القدير ٤٣٥/٢ (٨٨) المصدر السابق ٦٤٥/١ (٨٩) الإيقاع الرمضاني وإيقاع الميلاتونين / د. فوزي عبد القادر الفيشاوي ـ مجلة المنهل / السعودية العدد ٥٤٦ رمضان ص ٨٤ (٩٠) رواه البخاري عن أبي هريرة ـ كتاب التوحيد رقم ٦٨٧٨ (٩١) رواه الحاكم عن أنس (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٧٩٥ في صحيح الجامع (٩٢) رواه الطبراني عن ابن عمر (حسن) انظر حديث رقم: ١٧٦ في صحيح الجامع (٩٣) أنظر ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله للدكتور سيد حسين العفاني ج٢ ص ٣٦ وما بعدها / مكتبة معاذ بن جبل ـ القاهرة (٩٤) حديث حسن، رواه الطبراني في الأوسط صحيح الجامع رقم ٣٠٣٥

(٩٥) رواه أحمد والبخاري من رواية جابر عن أبي بكر موقوفا عليه، ورواه الحاكم عن أبي هريرة، والطبراني في الأوسط، صحيح الجامع رقم ٦٩٨١ (٩٦) تاريخ بغداد ج ٥٣٤/٣ (٩٧)

الموطأ للإمام مالك ـ كتاب الحج رقم ٧٥٦ (٩٨) العقد الفريد ٢٩٩/١-٢٠٠ (٩٩) نقلا عن ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله للدكتور سيد حسين العفاني ج٢ ص ٤٤ وما بعدها / مكتبة معاذ بن جبل ـ القاهرة (١٠٠) المصدر السابق ص ٤٦ (١٠١) رواه الترمذي وأحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٠٢١ وتخريج المشكاة رقم ٥٢٨٧ (١٠٢) سير أعلام النبلاء ٣٠/٤ والحلية ٨٤/٢، ٨٧/٢ (١٠٣) رواه أبو داود والترمذي وأحمد عن أبي سعيد وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٢١٨ (١٠٤) حلية الأولياء ٣٢٠/٧-٣٢١ (١٠٥) تاريخ بغداد ١٥٨/١٠ (١٠٦) حلية الأولياء ٣٣٠/٧ (١٠٧) رواه الطبراني عن أبي بكر(صحيح) انظر حديث رقم: ٤٥١٩ في صحيح الجامع (١٠٨) رواه أحمد عن ثوبان(ضعيف) انظر حديث رقم: ٤٦٨٤ في ضعيف الجامع. (١٠٩) انتهى من تفسير القرطبي / تفسير سورة المائدة آية رقم ٦٢ ج٣ ص٣٤٢ (١١٠) فيض القدير للمناوي ٥٣٧/٢

(١١١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج٢ ص ٣٤٥ (١١٢) رواه الطبراني عن ابن عمرو (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٤١٠ في صحيح الجامع (١١٣) رواه أحمد والترمذي عن خولة بنت قيس(صحيح) انظر حديث رقم: ٢٢٥١ في صحيح الجامع (١١٤) رواه مسلم ـ كتاب الزكاة رقم ١٦٨٦ (١١٥) رواه مسلم ـ كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة ١٠٢/٣-النووي (١١٦) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٢٠٦/٥-الإحسان ، وهو حديث حسن (١١٧) جامع العلوم والحكم ـ ابن رجب الحنبلي / الحديث العاشر ص ١٣٢ بتصرف (١١٨) البخاري ـ كتاب المناقب رقم ٣٥٥٤ (١١٩) سنن البيهقي الكبري ج١٠ص ١٣٩

(١٢٠) شعب الإيمان للبيهقي ج٦ ص٥٥ رقم ٧٤٨٦ (١٢١) شعب الإيمان للبيهقي ج٤ ص ٣٩٧ رقم ٥٥٢٨ (١٢٢) شعب الإيمان للبيهقي ج ٤ ص ٣٩٧ رقم ٥٥٣٢ (١٢٣) البخاري ـ كتاب المناقب رقم ٣٥٣٠ (١٢٤) الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي ج٢ص٤٨ رقم ٢٤٥٤ (١٢٥) مصنف ابن أبي شيبة ج٤ ص ٥٦١ رقم ٢٣١٣٤ (١٢٦) المصدر السابق ج ٤ ص ٥٦١ رقم ٢٣١٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ألا أخبركم عن النفر الثلاثة

عن أبي واقد الليثي -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه) (١)

أوى إلى الله فآواه الله

لا يلم شعث القلوب بشيء غير الإقبال على الله تعالى، والإعراض عما سواه، فبالإقبال يلم شعثه، ويزول كدره، ويصح سفره، ويجد روح الحياة، ويذوق طعم الحياة الملكية (٢)

والله تعالى حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً} [الطلاق: ٢-٣]

فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته، فإن الله تعالى بالغ أمره، وقد جعل الله لكل شيء قدرا لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ومن لم يخفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحدا غير الله إلا لنقص خوفه من الله.

قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ} [النحل ٩٨ –١٠٠]

وقال: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم فلا تخافوهم وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم (٣)

وفي هذا الحديث (أوى إلى الله) أي لجأ إلى الله، أو على الحذف أي انضم إلى مجلس رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (فآواه الله) أي جازاه بنظير فعله بأن ضمه إلى رحمته ورضوانه (٤)

قال تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [الذاريات:٥٠] والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقا، وهو يوحي بالأثقال والقيود والأغلال والأوهاق [القيود] التي تشد النفس البشرية إلى هذه الأرض، وتثقلها عن الانطلاق، وتحاصرها وتأسرها وتدعها في عقال، وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود، ومن ثم يجئ الهتاف قويا للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود! الفرار إلى الله وحده منزها عن كل شريك، وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العذر إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (٥)

وقال تعالى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق:٣] والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، فإن الله حسبه أي كافية، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ

منه مراده فلا يكون أبدا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه.

قال بعض السلف: جعل الله تعالى لكل عمل جزاء من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله وكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجا من ذلك وكفاه ونصره (٦)

وقال تعالى: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: ٨٨-٨٩] فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة وإخباتا وخشية ورجاء، وخلص عمله لله فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله -صلى الله عليه وسلم- فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب. وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الحجرات:١] أي لا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السلف: ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان: لم؟ وكيف؟ أي لم فعلت وكيف فعلت، فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس، أو خوف ذمهم، أو

استجلاب محبوب عاجل، أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى وابتغاء الوسيلة إليه.

ومحل هذا السؤال أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك أم فعلته لحظك وهواك؟ والثاني: سؤال عن متابعة الرسول –صلى الله عليه وسلم– في ذلك التعبد أي هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه؟

فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني عن المتابعة، فإن الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما، فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص وهوى يعارض الإتباع، فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة (٧)

ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به، فبه يطمئن وإليه يسكن وإليه يأوي، وبه يفرح وعليه يتوكل، وبه يثق وإياه يرجو وله يخاف، فذكره قوته وغذاؤه، ومحبته والشوق إليه حياته ونعيمه ولذته وسروره، والالتفاف إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن به، وزال ذلك الاضطراب والقلق، وانسدت تلك الفاقة، فإن في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبدا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده، فهو دائما يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة، ويذوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار، وله أرسلت الرسل، ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاء إلا نفس وجوده لكفى به جزاء، وكفى بفوته حسرة وعقوبة.

قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره وطاعته.

وقال آخر: إنه ليمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: والله ما طابت الدنيا إلا بمحبته وطاعته ولا الجنة إلا برؤيته ومشاهدته.

وقال أبو الحسين الوراق: حياة القلب في ذكر الحي الذي لا يموت، والعيش الهني الحياة مع الله تعالى لا غير.

ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت، لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق، فكم بين الانقطاعين؟

وقال آخر: من قرت عينه بالله تعالى قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات.

وقال يحيى بن معاذ: من سر بخدمة الله سرت الأشياء كلها بخدمته، ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر إليه. (٨)

ولما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفا على جمعيته على الله ولم شعثه بإقباله بالكيلة على الله تعلى، فإن شعت القلب لا يلمه إلا الإقبال على الله تعالى، وكان فضول الطعام والشراب وفضول مخالطة الأنام وفضول الكلام وفضول المنام مما يزيده أو يعوقه ويوقفه في كل واد ويعطله عن سيره إلى الله تعالى أو يضعفه أو يعوقه ويوقفه، اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعبادة أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى وشرعه بقدر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وأخراه ولا يضره ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة، وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصود وروحه عكوف القلب على الله تعالى وجمعيته عليه والخلوة به والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته فيستولى عليه بدلها، ويصير الهم كله به والخطرات كلها بذكره والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه

بالله بدلا عن أنسه بالخلق فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له ولا ما يفرح به سواه فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم.

ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم وهو العشر الأخير من رمضان، ولم ينقل عن النبي أنه اعتكف مفطرا قط، بل قد قالت عائشة –رضي الله عنها–: لا اعتكاف إلا بصوم. ولم يذكر الله سبحانه الاعتكاف إلا مع الصوم ولا فعله رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إلا مع الصوم، فالقول الراجح في الدليل الذي عليه جمهور السلف أن الصوم شرط في الاعتكاف وهو الذي يرجحه شيخ الإسلام أبو العباس بن تيمية.

وأما الكلام فإنه شرع للأمة حبس اللسان عن كل مالا ينفع في الآخرة، وأما فضول المنام فإنه شرع لهم من قيام الليل ما هو من أفضل السهر وأحمد عاقبة، وهو السهر المتوسط الذي ينفع القلب والبدن ولا يعوق عن مصلحة العبد، ومدار رياضه أرباب الرياضات والسلوك على هذه الأركان الأربعة، وأسعدهم بها من سلك فيها المنهاج النبوي المحمدي، ولم ينحرف انحراف الغالين، ولا قصر تقصير المفرطين (٩)

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثوابا عاجلا أن الله سبحانه وتعالى يقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه، كما أنه يعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم، فما أقبل عبد على الله بقلبه إلا أقبل الله عز وجل عليه بقلوب عباده، وجعل قلوبهم تفد إليه بالود والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع، وإذا كانت القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وكل إحسان وصل إلى العبد فمن الله عز وجل كما قال الله تعالى: {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ} [النحل:٥٣] فلا ألأم ممن شغل قلبه بحب غيره دونه (١٠)

استحيا فاستحيا الله منه

الحياء مشتق من الحياة، والغيث يسمى حيا –بالقصر– لأن به حياة الأرض والنبات والدواب، ولذلك قيل بالحياء حياة الدنيا والآخرة، لأن من لا حياء له فهو ميت في الدنيا

شقي في الآخرة، وقال بعض البلغاء: "حياة الوجه بحيائه، كما أن حياة الغرس بمائه" وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم (١١)

وحقيقة الحياء أنه خلق يبعث على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق، وقد اختص الله عز وجل به الإنسان ليرتدع به عما تنزع إليه الشهوة من القبائح كي لا يكون كالبهيمة التي تهجم على ما تشتهي دون حياء، وبين اقتراف الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر ويطلبه حثيثا، وأما الخجل فحيرة النفس لفرط الحياء، ويحمد في النساء والصبيان، ويذم باتفاق في الرجال، أما الوقاحة فهي مذمومة بكل إنسان إذ هي انسلاخ من الإنسانية وحقيقتها لجاج النفس في تعاطي القبيح.

قال تعالى ممتدحا صفة الحياء في بنت الرجل الصالح التي انحدرت من بيت كريم ينضح بالعفاف والطهارة {فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء} [القصص:٢٥]

قال عمر –رضي الله عنه–: ليست بسلفع [سليطة جريئة] من النساء، خراجة ولاجة، ولكن جاءت مستترة قد وضعت كم درعها على وجهها استحياء (١٢)

وقال سيد قطب –رحمة الله–: {تمشي على استحياء} مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال {على استحياء} في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء. جاءته لتنهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله يحكيه القرآن بقوله {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح، لا التلجلج والتعثر والربكة. وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة. فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم، ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج، إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب ولا تزيد (١٣)

وعن أبي قتادة، قال: كنا عند عمران بن حصين –رضي الله عليه– في رهط منا وفينا بشير بن كعب فحدثنا عمران يومئذ قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (الحياء كله خير) فقال بشير بن كعب: إنا لنجد في بعض الكتب أو الحكمة أن منه سكينة ووقارا لله، ومنه ضعف. قال: فغضب عمران حتى احمرتا عيناه، وقال ألا أراني أحدثك عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وتعارض فيه (١٤)

قال أبو حاتم: إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه ودفن مساويه ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ومن ذهب سروره هان على الناس ومقت، ومن مقت أوذي ومن أوذي حزن ومن حزن فقد عقله ومن أصيب في عقله كان أكثر قوله عليه لا له، ولا دواء لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له، ومن قل حياؤه صنع ما شاء وقال ما أحب (١٥)

وقوله في الحديث (منه سكينة ووقارا لله، ومنه ضعف) أي أنه قد يستحي المرء أن يواجه بالحق من يستحييه، فيدع أمره بمعروف ونهيه عن منكر، وقد يحمله على إخلاله ببعض الحقوق وغير ذلك مما يعرف عادة. والجواب عن ذلك: أن هذا المانع ليس من الحياء حقيقة، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما يطلق عليه أهل العرف حياء مجازا، أما الحياء الحقيقي فهو خلق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق كل ذي حق.

الحياء من الإيمان

فعن عن عبد الله بن عمر –رضي الله عليه– قال: مر النبي –صلى الله عليه وسلم– على رجل وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحيي، حتى كأنه يقول: قد أضر بك. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (دعه، فإن الحياء من الإيمان) (١٦)

ولا يفهم من الحض على الحياء وإن أضر بحق المستحي، وأن من استغل هذا الحياء عار عن الإثم والحيف، فقد قال العلماء: "أخذ المال بالحياء كأخذه بالسيف" مستنبطين ذلك من قوله –صلى الله عليه وسلم– (لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه) (١٧)

وعن أبي حميد –رضي الله عليه– قال: لا يحل لرجل أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفس، وذلك لشدة ما حرم رسول الله –صلى الله عليه وسلم– من مال المسلم على المسلم.

وقال –صلى الله عليه وسلم– (الحياء والإيمان قرنا جميعا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر) (١٨)

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: الحياء والإيمان في طلق، فإذا انتزع أحدهما من العبد، اتبعه الآخر (١٩)

وعن أبي هريرة –رضي الله عليه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان) (٢٠)

قال ابن قتيبة: إن الحياء يمنع صاحبه من المعاصي كما يمنع الإيمان، فسمي إيمانا كما يسمى الشيء باسم ما قام مقامه، وأفرده بالذكر لأنه كالداعي إلى باقي الشعب، إذ الحيي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر وينزجر وهو أساس التقوى، وهو من مبادئ الإيمان، ووجود المبدأ غير وجود الشيء، والأساس غير البنيان، نعم وجود المبدأ والأساس يدل أن الشيء كاد أن يوجد، فلا يغرنك كون بعض الكفرة ذا حياء لأن الانهماك والاشتغال في الدنيا لم يرزقه الإيمان، وإن وصل إلى فيه، والغفلة تمنعه أن تنبت فيه شجرة الإيمان وتثمر وتزهو، فالكافر الحيي كاد أن يدخل الباب ولما يدخل، فمن استحيى من الله لا يفقده حيث أمره ولا يجده حيث نهاه (٢١)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار) (٢٢)

قال المناوي: (الحياء من الإيمان) قال الزمخشري: جعل كالبعض منه لمناسبته له في أنه يمنع من المعاصي كما يمنع الإيمان، وقال ابن الأثير: جعل الحياء –وهو غريزة– من الإيمان، وهو اكتساب، لأن المستحي ينقطع بحيائه عن المعاصي، وإن لم يكن له نقية، فصار كالإيمان

الذي يقطع بينهما وبينه، وجعله بعضه لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار بما أمر الله وانتهاء عما نهى عنه، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان أخص الإيمان (والإيمان في الجنة) أي يوصل إليها (والبذاء) الفحش في القول (من الجفاء) أي الطرد والإعراض وترك الصلة والبر (والجفاء في النار)

وسئل بعضهم: هل يكون الحياء من الإيمان مقيد أو مطلق؟ فقال: مقيد بترك الحياء في المذموم شرعاً وإلا فعدمه مطلوب في النصح والأمر والنهي الشرعي، فتركه في هذه الأشياء من النعوت الإلهية {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ} [البقرة: ٢٦]، {وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ} [الأحزاب:٥٣] (٢٣)

وقال ابن عطاء: ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحياء، قال الله عز وجل: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق:١٤] (٢٤)

وعن سلمان –رضي الله عليه– قال: إن الله تعالى إذا أراد بعبد شرا أو هلكة نزع منه الحياء، فلم تلقه إلا مقيتا ممقتا، فإذا كان مقيتا ممقتا نزعت منه الرحمة، فلم تلقه إلا فظا غليظا، فإذا كان كذلك نزعت منه الأمانة، فلم تلقه إلا خائنا مخونا، فإذا كان كذلك نزعت ربقة الإسلام من عنقه، فكان لعينا ملعنا (٢٥)

وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال: أبرار الدنيا الكذب وقلة الحياء، من طلب الدنيا بغيرهما فقد أخطأ الطريق والمطلب، وأبرار الآخرة الحياء والصدق، فمن طلب الآخرة بغيرهما قد أخطأ الطريق والمطلب (٢٦)

الحياء خلق الإسلام

قال –صلى الله عليه وسلم–: (إن لكل دين خلقا، وإن خلق الإسلام الحياء) (٢٧)

قال المناوي (إن لكل دين خلقاً) أي طبعاً وسجية (وإن خلق الإسلام الحياء) أي طبع هذا الدين وسجيته التي بها قوامه أو مروءة هذا الدين التي بها جماله الحياء، فالحياء أصله من الحياة فإذا حيي القلب بالله تعالى فكلما ازداد حياؤه بالله ازداد منه حياة، ألا ترى أن المستحي يعرق في وقت الحياء، فعرقه من حرارة الحياة التي هاجت من الروح، فمن هيجانه تفور الروح فيعرق منه الجسد، ويعرق منه أعلاه لأن سلطان الحياة في الوجه والصدر، وذلك من قوة الإسلام، لأن الإسلام تسليم النفس والدين خضوعها وانقيادها، فلذلك صار الحياء خلقاً للإسلام فيتواضع ويستحي، وقيل: يعني الغالب على أهل كل دين سجية سوى الحياء، والغالب على أهل ديننا الحياء، لأنه متمم لمكارم الخلاق، وإنما بعث المصطفى –صلى الله عليه وسلم– لإتمامها، ولما كان الإسلام أشرف الأديان أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرفها، وهو الحياء (٢٨)

وعن علقمة بن مرثد قال: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين منهم الأسود بن يزيد كان مجتهدا في العبادة يصوم حتى يخضر جسده ويصفر.

وكان علقمة بن قيس يقول له: لم تعذب هذا الجسد؟ قال: راحة هذا الجسد أريد.

فلما احتضر بكى، فقيل له" ما هذا الجزع؟!

قال مالي لا أجزع، ومن أحق بذلك مني، والله لو أتيت بالمغفرة من الله عز وجل لهمني الحياء منه مما قد صنعته، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيا منه، ولقد حج الأسود ثمانين حجة (٢٩)

وكان أحمد بن عاصم يقول: أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي، وليست المعرفة الإقرار به، ولكن المعرفة التي إذا عرفت استحييت (٣٠)

الهوامش والمصادر

(١) رواه البخاري ـ كتاب العلم برقم ٦٤ ورواه في كتاب الصلاة برقم ٤٥٤، ورواه مسلم في كتاب السلام برقم ٤٠٤٢ والترمذي في كتاب الاستئذان والآداب برقم ٢٦٤٨

(٢) مدارج السالكين ـ ابن قيم الجوزية ج: ٣ ص: ٩٦ ط دار الحديث بتصرف (٣) بدائع الفوائد ـ ابن القيم ج: ٢ ص: ٤٦٣ (٤) الحافظ ابن حجر _ فتح الباري شرح الحديث في كتاب العلم ج١ ص ١٥٢ بتصرف

(٥) في ظلال القرآن – سيد قطب ص ٣٣٨٦ / دار الشروق (٦) بدائع الفوائد ـ ابن قيم الجوزية ج ٢ ص ٤٦٥

(٧) إغاثة اللهفان – ابن قيم الجوزية ج: ١ ص: ٧

(٨) إغاثة اللهفان ج: ١ ص: ٧١

(٩) زاد المعاد ج: ٢ ص: ٨٨ ط مؤسسة الرسالة / باب في هدي النبي في الاعتكاف

(١٠) روضة المحبين ابن قيم الجوزية ج: ١ ص: ٤١٧ بتصرف

(١١) الحياء خلق الإسلام ـ محمد بن إسماعيل المقدم نقلا عن ابن القيم في الداء والدواء ص ٤٦ بتصرف/ دار الدعوة السلفية ص ٥ (١٢) أخرجه الفرياني وابن أبي شيبة في المصنف وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عمر كما في الدر المنثور ١٢٤/٥ (١٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ص ٢٦٨٧ ط دار الشروق ـ مصر (١٤) رواه مسلم ـ كتاب الإيمان برقم ٥٤ (١٥) روضة العقلاء ـ ابن أبي حاتم ـ مكتبة السنة بمصر ص ٥٨ (١٦) رواه البخاري ـ كتاب الأدب برقم ٥٦٥٣ (١٧) رواه أبو داود عن حنيفة الرقاشي. (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٦٦٢ في صحيح الجامع. (١٨) رواه الحاكم في المستدرك ٢٢/١ عن ابن عمر وقال صحيح على شرطهما وأقره الذهبي (صحيح) حديث رقم: ٣٢٠٠ في صحيح الجامع السيوطي / الألباني (١٩) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ١٤٠

(٢٠) رواه البخاري ومسلم ـ كتاب الإيمان برقم ٥١ (٢١) من فضل الله الصمد ٥٥/٢ (٢٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة ـ كتاب البر والصلة برقم ١٩٣٢وقال حديث حسن صحيح (صحيح) حديث رقم: ٣١٩٩ في صحيح الجامع (٢٣) فيض القدير للمناوي ٥٨٧/٢ بتصرف يسير (٢٤) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ١٤٧ (٢٥) حلية الأولياء ج: ١ ص: ٢٠٤ (٢٦) شعب الإيمان ج: ٤ ص: ٢٣٣ (٢٧) رواه ابن ماجة عن أنس وابن عباس (حسن) انظر حديث رقم: ٢١٤٩ في صحيح الجامع. (٢٨) فيض القدير للمناوي ٤٥٨/٢ (٢٩) حلية الأولياء ج: ٢ ص: ١٠٣ (٣٠) حلية الأولياء ج: ٩ ص: ٢٨٢ بتصرف

التواضع زينة الأخلاق

عن ابن عباس –رضي الله عنهما–، قال –صلى الله عليه وسلم–:

(ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمَة بيد مَلَك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: دع حكمته) (١)

من أعظم النعم التي ينعم الله بها على عبده «نعمة التواضع».. أن يألف ويؤلف.. أن يكون هينا لينا قريبا سهلا.. سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى. وللتواضع تأثير عجيب في تماسك المجتمع، فلا يدعه حتى يصير كل أفراده على قلب رجل واحد، لا يشقى بينهم يتيم، ولا يضيع وسطهم محروم، ولا يظلم في جوارهم ضعيف.

قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً} [الفرقان:٦٣].. أي يمشون بسكينة ووقار، متواضعين غير أشرين، ولا مرحين ولا متكبرين.

قال سيد قطب –رحمة الله–: ها هي ذي السمة الأولى من سمات عباد الرحمن، أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة ليس فيها تكلف ولا تصنع وليس فيها خيلاء ولا تنفج ولا تصعير خد ولا تخلع أو ترهل، فالمشية ككل حركة تعبير عن الشخصية وعما يستكن فيها من مشاعر، والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة، فيها وقار وسكينة وفيها جد وقوة. (٢)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغ أحد على أحد) (٣)

وقال: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) (٤)

ويعلق المناوي على حديثنا هذا بقوله: (ما من آدمي) من زائدة وهي هنا تفيد عموم النفي، وتحسين دخول ما على النكرة (إلا في رأسه حكمة) وهي بالتحريك: ما يجعل تحت حنك الدابة يمنعها المخالفة كاللجام، والحنك متصل بالرأس (بيد ملك) موكل به (فإذا تواضع) للحق والخلق (قيل للملك) من قبل الله تعالى (ارفع حكمته) أي قدره ومنزلته، يقال: فلان عالي الحكمة، فرفعها كناية عن الإعزاز (فإذا تكبر قيل للملك ضع حكمته) كناية عن إذلاله، فإن من صفة الذليل تنكيس رأسه، فثمرة التكبر في الدنيا الذلة بين عباد الله، وفي الآخرة نار الإيثار، وهي عصارة أهل النار كما جاء في بعض الأخبار (٥)

وعن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قال: إن الرجل إذا تواضع لله رفع الله حكمته. وقال: انتعش نعشك الله، فهو في نفسه صغير وفي أعين الناس كبير، وإذا تكبر العبد وعدا طوره، وهصه الله إلى الأرض، وقال أخسأك الله، فهو في نفسه كبير وفي أعين الناس صغير (٦)

يقول ابن حبان: الواجب على العاقل لزوم التواضع ومجانبة التكبر، ولو لم يكن في التواضع خصلة تحمله إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة لكان الواجب عليه أن لا يتزيا بغيره، والتواضع نوعان: التواضع المحمود ويكون بترك التطاول على عباد الله والإزراء بهم، والتواضع المذموم وهو تواضع المرء لذي الدنيا رغبة في دنياه. (٧)

قال أبو بكر الصديق –رضي الله عنه–: وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع. (٨)

وقالت أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–: إنكم لتغفلون أفضل العبادة: التواضع. (٩)

وقال معاذ بن جبل –رضي الله عنه–: لن يبلغ العبد ذرى الإيمان حتى يكون التواضع أحب إليه من الشرف. (١٠)

وقال عروة بن الورد: التواضع أحد مصائد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع. (١١)

وقال أبو حاتم: التواضع يرفع المرء قدرا، ويعظم له خطرا، ويزيده نبلا. (١٢)

وعبارات السلف الصالح في تعريف التواضع أشبه بصندوق الدرر التي تبهر العين وتمسك بتلابيب الفؤاد، فسئل الفضيل بن عياض يوما عن التواضع فقال: يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح ولين الجانب.

وقال أبو يزيد البسطامي: هو أن لا يرى لنفسه مقاما ولا حالا، ولا يرى في الخلق شرا منه.

وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان، والعز في التواضع، فمن طلبه في الكبر فهو كطلب الماء من النار.

وقال حمدون القصار: التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة لا في الدين ولا في الدنيا.

وقال صاحب (المنازل) شيخ الإسلام الهروي: التواضع أن يتواضع العبد لصولة الحق.. قال ابن القيم معلقا: يعني أن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له والذل والانقياد، والدخول تحت رقه، بحيث يكون الحق متصرفا فيه تصرف المالك في مملوكه، فبهذا يحصل للعبد خلق التواضع، ولهذا فسر النبي –صلى الله عليه وسلم– الكبر بضده، فقال –صلى الله عليه وسلم–: (الكبر بطر الحق، وغمط الناس) (١٣) فبطر الحق: رده وجحده والدفع في صدره كدفع الصائل، وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم. ومتى احتقرهم وازدراهم دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها (١٤)

ومن مظاهر التواضع وصفات المتواضعين (١٥)

- كراهيتهم مشي الناس خلفهم: فعن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنه– قال: "ما رئي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يأكل متكئا ولا يطأ عقبه رجلان" (١٦)، وسار

قوم خلف عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– فنظر إليهم غاضبا، وقال لهم: ارجعوا، فإنها فتنة للمتبوع، وذلة للتابع.

● زيارتهم لغيرهم: قدم سفيان الثوري «الرملة» فبعث إليه إبراهيم ابن أدهم أن تعال فحدثنا، فجاء سفيان فقيل: له يا أبا إسحق تبعث إليه بمثل هذا؟ فقال: أردت أن أنظر كيف تواضعه.

● لا يستنكفون من جلوس غيرهم إلى جوارهم: قال ابن وهب، جلست إلى عبد العزيز بن أبي رواد، فمس فخذي فخذه، فنحيت نفسي عنه، فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه، وقال لي: لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة، وإني لا أعرف رجلا منكم شرا مني.

● عدم أنفتهم من حمل أمتعتهم الخاصة: قال علي –رضي الله عنه– لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. وعن الأصبغ بن نباته قال: كأني أنظر إلى عمر –رضي الله عنه– معلقا لحما في يده اليسرى، وفي يده اليمنى الدرة، يدور في الأسواق حتى دخل رحله.

● جلوسهم إلى المساكين: عن مسعر قال: مر الحسين بن علي –رضي الله عنه– على مساكين وقد بسطوا كساء وبين أيديهم كسر فقالوا: هلم يا أبا عبد الله، فحول وركه وقرأ: {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ} [النحل:٢٣] فأكل معهم ثم قال: قد أجبتكم فأجيبوني، فقال للرباب ـ يعني امرأته ـ أخرجي ما كنت تدخرين. (١٧)

اخفض جناحك

قال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء:٢١٥]

قال القرطبي: أي ألن جانبك لمن آمن بك وتواضع لهم (١٨)

ولقد كان –صلى الله عليه وسلم– سيد المتواضعين، وكان يقول: (اللهم أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين) (١٩)

أراد به استكانة القلب والتواضع والإخبات، وأن لا يكون من الجبارين المتكبرين.. قال ابن تيمية: فالمسكين المحمود هو المتواضع الخاشع لله، ليس المراد بالمسكنة عدم المال،

بل قد يكون الرجل فقيرا من المال وهو جبار، فالمسكنة خلق في النفس وهو التواضع والخشوع واللين ضد الكبر، كما قال عيس عليه السلام: {وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً} [مريم:٣٢] (٢٠)

وعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: قال –صلى الله عليه وسلم–: (يا عائشة، لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة، فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت نبيا عبدا وإن شئت نبيا ملكا، فنظرت إلى جبريل عليه السلام، فأشار إلي أن ضع نفسك، فقلت: نبيا عبدا)

قالت: وكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بعد ذلك لا يأكل متكئا: يقول: (آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد) (٢١)

وعن أنس –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم (٢٢)

وعنه أيضا قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فتنطلق به حيث شاءت (٢٣)

وعن سهل بن حنيف قال: كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم (٢٤)

وعن الحسن البصري أنه ذكر رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال لا والله ما كانت تغلق دونه الأبواب، ولا يقوم دونه الحجاب، ولا يغدى عليه بالجفان، ولا يراح عليه بها، ولكنه كان بارزا من أراد أن يلقى نبي الله لقيه، وكان يجلس بالأرض، ويوضع طعامه بالأرض، يلبس الغليظ، ويركب الحمار ويردف عبده ويعلف دابته بيده –صلى الله عليه وسلم–. (٢٥)

على الدرب

قسم عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– بين الصحابة –رضي الله عنهم– حللا، فبعث إلى معاذ حلة ثمينة فباعها واشترى بثمنها ستة أعبد وأعتقهم، فبلغ ذلك عمر فبعث

إليه بعد ذلك حلة دونها، فعاتبه معاذ. فقال عمر: لأنك بعت الأولى. فقال معاذ: وما عليك؟! ادفع لي نصيبي، وقد حلفت لأضربن بها رأسك، فقال عمر: رأسي بين يديك، وقد يرفق الشاب بالشيخ (٢٦)

وعن عمرو بن قيس أن عليا –رضي الله عنه– رئي عليه إزار مرقوع فعوتب في لبسه، فقال يقتدي بي المؤمن ويخشع له القلب (٢٧)

وعن فضيل بن عياض قال: رئي على سلمان جبة من صوف، فقيل له لو لبست ألين من هذا؟ فقال: إنما أنا عبد، ألبس كما يلبس العبد، فإذا عتقت لبست ثيابا لا تبلى حواشيها (٢٨)

وعن الإمام أحمد يقول المروزي: لم أر الفقير في مجلس أعز منه في مجلس أبي عبد الله، كان مائلا إليهم مقصرا عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم، ولم يكن بالعجول، وكان كثير التواضع تعلوه السكينة والوقار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلم حتى يُسأل، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدر يقعد حيث انتهى به المجلس. (٢٩)

همسة في أذن كل متكبر

إذا كانت الهداية إلى الله تعالى مصروفة، والاستقامة على مشيئته موقوفة، والعاقبة مغيبة، والإرادة غير مغالبة، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدار عليك وخيره، فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيره، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم فأصبحت وزهرها يابس هشيم، إذ هبت عليها الريح العقيم، كذلك العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصية الله مظلم سقيم، ذلك من فعل العزيز الحليم الخلاق العليم (٣٠)

المصادر والهوامش

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٨١/١٢ برقم ١٤٣٥٣٢عن ابن عباس –رضي الله عنه–، والبزار عن أبي هريرة، وقال المنذري في الترغيب ١٦/٤ والهيثمي في مجمع الزوائد ٨٢/٨: إسنادهما حسن، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٢٧٧/٦ برقم ٨١٤٣ ورواه أيضا السيوطي في الجامع الصغير (حسن) انظر حديث رقم: ٥٦٧٥ في صحيح الجامع للسيوطي / الألباني. وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٥٣٥

(٢) الظلال ص ٢٥٧٧ (٣) رواه مسلم عن عياض بن حمار / كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم ٥١٠٩ ٤٦٨٩ (٤) رواه مسلم عن أبي هريرة / كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٦٦٥ (٥) فيض القدير / المناوي (٥٤٨/٢) (٦) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ـ ابن حبان ص ٦٠ (٧) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ـ ابن حبان ـ مكتبة السنة المحمدية ـ القاهرة ص ٥٦ (٨) موسوعة صلاح الأمة في علو الهمة / العفاني ج٥ ص ٤٢٠ (٩) حلية الأولياء ـ أبو نعيم الأصبهاني ج٧ ص٢٤٠ (١٠) الزهد ـ ابن المبارك ج١ ص٥٢ (١١) تنبيه الغافلين / السمرقندي ص١٣٩ (١٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ـ ابن حبان ص ٦٠ (١٣) تخريج السيوطي رواه مسلم عن ابن مسعود ـ كتاب الإيمان برقم ١٣١ (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٦٧٤ في صحيح الجامع. السيوطي / الألباني (١٤) انظر هذه التعريفات في مدارج السالكين ـ ابن القيم ط دار الحديث القاهرة ج ٢ ص ٣٤٦ (١٥) انظر موسوعة صلاح الأمة في علو الهمة / د. سيد العفاني ط دار الرسالة ج٥ ص ٤٤٥ وما بعدها (١٦) إسناده حسن أخرجه ابن أبي الدنيا في (التواضع والخمول) وأبو الشيخ في (أخلاق النبي) والبيهقي في (الزهد) ٥٨٥/٢ (١٧) أنظر التواضع والخمول لابن أبي الدنيا ص١٥١ (١٨) تفسير القرطبي ص ٣٦٧٣ ط دار الشعب (١٩) رواه ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري ـ كتاب الزهد برقم ٤١١٦ والترمذي بنحوه عن أنس ـ كتاب الزهد برقم ٢٢٧٥ وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٣٦٣/٣ (٢٠) مجموع الفتاوى ٣٨٢/١٨ (٢١) صحيح لغيره: رواه البغوي في شرح السنة وروى نحوه الهيثمي في المجمع ١٩/٩ عن أبي هريره وقال (رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ورجال الأولين رجال الصحيح ورواه أبو يعلى بإسناد حسن) (٢٢) رواه البخاري ـ كتاب الاستئذان ـ باب التسليم على الصبيان (٢٣) البخاري ـ كتاب الآداب برقم ٥٦١٠ (٢٤) صحيح: رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم ٤٦٦/٢وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٢١١٢ (٢٥) صفوة الصفوة ج: ١ ص: ١٦٨ (٢٦) مدارج السالكين ٢٣٠/٢ (٢٧) إسناده صحيح أخرجه أحمد في فضائل الصحابة وهناد في الزهد ٥٦٥/٢ وابن سعد في الطبقات ٦/ ٥٨٣وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٢٨) ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ٥٤٨/١ (٢٩) تاريخ الإسلام ـ الذهبي

٥٨٨/٤ (٣٠) التذكرة في أحوال الموت وأمور الآخرة ـ القرطبي بتحقيق مجدي فتحي السيد (١٠٩/١) دار الصحابة

بر الوالدين

عن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها– قال: رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:

(دخلت الجنة فسمعت فيها قراءة. قلت من هذا؟) فقالوا: حارثة بن النعمان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كذلكم البر كذلكم البر [وكان أبر الناس بأمه]) (١)

من روائع هذا الدين، تمجيده للبر، حتى صار يعرف به، فحقا إن الإسلام دين البر الذي بلغ من شغفه به أن هون على أبنائه كل صعب في سبيل ارتقاء قمته العالية، فصارت في رحابه أجسادهم كأنها في علو من الأرض وقلوبهم معلقة بالسماء.

وأعظم البر «بر الوالدين» الذي لو استغرق المؤمن عمره كله في تحصيله لكان أفضل من جهاد النفل، الأمر الذي أحرج أدعياء القيم والأخلاق في دول الغرب، فجعلوا له يوما واحدا في العام، يردون فيه بعض الجميل للأبوة المهملة، بعدما أعياهم أن يكون من الفرد منهم بمنزلة الدم والنخاع كما عند المسلم الصادق.

وبالوالدين إحسانا

قال تعالى:

- {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [البقرة:٨٣].. والإحسان نهاية البر، فيدخل فيه جميع ما يحب من الرعاية والعناية، وقد أكد الله الأمر بإكرام الوالدين حتى قرن تعالى الأمر بالإحسان إليهما بعبادته، التي هي توحيده والبراءة عن الشرك اهتماما به وتعظيما له (٢)

قال القرطبي: وقرن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني –وهو التربية– من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشكر

لهما بشكره، فقال: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان:١٤]. والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتثال أمرهما، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما، وصلة أهل ودهما (٣)

• {وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [النساء:٣٦] أوصى سبحانه بالإحسان إلى الوالدين، إثر تصدير ما يتعلق بحقوق الله عز وجل التي هي آكد الحقوق وأعظمها، تنبيها على جلالة شأن الوالدين، بنظمهما في سلكها، بقوله: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} وقد كثرت مواقع هذا النظم في التنزيل العزيز، كقوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [الإسراء:٢٣] أي أحسنوا بهما إحسانا يفي بحق تربيتهما، فإن شكرهما يدعو إلى شكر الله المقرب إليه، مع ما فيه من صلة أقرب الأقارب الموجب لوصلة الله وقطعها لقطعه (٤)

وقال القرطبي: أحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة له والإذعان من قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته وشكره بشكره وهما الوالدان (٥)

• {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} [الأنعام:١٥١] ولما كان إيجاب الإحسان تحريما لترك الإحسان، ذكر في المحرمات، فإن الأمر بالشيء مستلزم للنهي عن ضده، كأن الأوامر ذكرت وقصد لوازمها.

• {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} [الإسراء:٢٣- ٢٤] قال ذو النون: ثلاثة من أعلام البر: بر الوالدين، بحسن الطاعة لهما، ولين الجناح، وبذل المال، وبر الولد بحسن التأديب لهم والدلالة على الخير، وبر جميع الناس بطلاقة الوجه وحسن المعاشرة (٦)، وطلبت أم مسعر ليلة من مسعر ماء، فقام فجاء بالكوز فصادفها وقد نامت، فقام على رجليه بيده الكوز إلى أن أصبحت فسقاها (٧) وعن محمد ابن المنكدر قال: بت أغمز [المراد بالغمز ما يسمى الآن بالتكبيس] رجلي أمي، وبات عمي يصلي ليلته، فما سرني

ليلته بليلتي. ورأى أبو هريرة رجلا يمشي خلف رجل، فقال من هذا؟ قال: أبي. قال: لا تدعه باسمه ولا تجلس قبله ولا تمش أمامه (٨)

ووصينا الإنسان بوالديه

قال تعالى:

• {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [العنكبوت:٨].. قيل: نزلت في سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– كما روى الترمذي: قال سعد: أنزلت في أربع آيات: فذكر قصة، وقالت: أم سعد، أليس قد أمر الله بالبر؟ والله لا أطعم طعاما، ولا أشرب شرابا، حتى أموت أو تكفر. قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها، شجروا فاها. فنزلت هذه الآية: {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي ...} (٩)

• {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} [الأحقاف: ١٥–١٦]

• {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ {وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٤– ١٥]

قال سيد قطب رحمه الله تعالى: توصية الولد بالوالدين تتكرر في القرآن الكريم وفي وصايا رسول صلى الله عليه وسلم، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا، ومعظمها في حالة الوأد، وهي حالة خاصة في ظروف خاصة، ذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ، لضمان امتداد الحياة كما يريدها

الله، وإن الوالدين ليبذلان لوليدهما من أجسامهما وأعصابهما وأعمارهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال في غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلان بل في نشاط وفرح وسرور كأنهما هما اللذان يأخذان! فالفطرة وحدها كفيلة بتوصية الوالدين دون وصاة، فأما الوليد فهو في حاجة إلى الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المدبر المولي الذاهب في أدبار الحياة، بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى مستقبل الحياة!

يقول سيد قطب: وما يملك الوليد وما يبلغ أن يعوض الوالدين بعض ما بذلاه ولو وقف عمره عليهما وهذه الصورة الموحية {حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين} ترسم ظلال هذا البذل النبيل، والأم بطبيعة الحال تحتمل النصيب الأوفر وتجود به في انعطاف أشد وأعمق وأحنى وأرفق، وفي ظلال تلك الصورة الحانية يوجه إلى شكر الله المنعم الأول، وشكر الوالدين المنعمين التاليين ويرتب الواجبات فيجيء شكر الله أولا ويتلوه شكر الوالدين {أن اشكر لي ولوالديك} ويربط بهذه الحقيقة حقيقة الآخرة {إلى المصير} حيث ينفع رصيد الشكر المذخور، ولكن رابطة الوالدين بالوليد على كل هذا الانعطاف وكل هذه الكرامة إنما تأتي في ترتيبها بعد وشيجة العقيدة، فبقية الوصية للإنسان في علاقته بوالديه {وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما} فإلى هنا ويسقط واجب الطاعة، وتعلو وشيجة العقيدة على كل وشيجة، فمهما بذل الوالدان من جهد ومن جهاد ومن مغالبة ومن إقناع ليغرياه بأن يشرك بالله ما يجهل ألوهيته وكل ما عدا الله لا إلوهية له فتعلم! فهو مأمور بعدم الطاعة من الله صاحب الحق الأول في الطاعة.

ولكن الاختلاف في العقيدة والأمر بعدم الطاعة في خلافها لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الطيبة والصحبة الكريمة {وصاحبهما في الدنيا معروفا} فهي رحلة قصيرة على الأرض لا تؤثر في الحقيقة الأصيلة {واتبع سبيل من أناب إلي} من المؤمنين {ثم إلي مرجعكم} بعد رحلة الأرض المحدودة {فأنبئكم بما كنتم تعملون} ولكل جزاء ما عمل من كفران أو شكران ومن شرك أو توحيد (١٠)

كذلكم البر كذلكم البر

عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: (الصلاة على وقتها) قال: ثم أي؟ قال: (ثم بر الوالدين) قال ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله) (١١)

فأخبر صلى الله عليه وسلم أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام. ورتب ذلك بـ (ثم) التي تعطي الترتيب والمهلة. ومن البر بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة؛ فعن عمرو بن العاص –رضي الله عنه– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من الكبائر شتم الرجل والديه) قالوا يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: (نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه) (١٢)

وعن عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنه– قال صلى الله عليه وسلم: (رضا الرب في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما) (١٣)

قال المناوي: (رضا الرب في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما) أي غضبهما الذي لا يخالف القوانين الشرعية كما تقرر، فإن قيل: ما وجه تعلق رضا اللّه عنه برضا الوالد؟ قلنا: الجزاء من جنس العمل، فلما أرضى من أمر اللّه بإرضائه رضي اللّه عنه، فهو من قبيل لا يشكر اللّه من لا يشكر الناس. قال الغزالي: وآداب الولد مع والده أن يسمع كلامه ويقوم بقيامه ويمتثل أمره ولا يمشي أمامه ولا يرفع صوته ويلبي دعوته ويحرص على طلب مرضاته ويخفض له جناحه بالصبر ولا يمن بالبر له ولا بالقيام بأمره ولا ينظر إليه شزراً ولا يقطب وجهه في وجهه (١٤)

وعن أبي الدرداء –رضي الله عنه– أن رجلا أتاه فقال: إن لي امرأة، وإن أمي تأمرني بطلاقها. قال أبو الدرداء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الوالد أوسط أبواب الجنة) فإن شئت فأضع ذلك الباب أو احفظه (١٥) أي خير الأبواب وأعلاها

وأفضلها، يقال: هو من أوسط قومه، أي من خيارهم. والمعنى: أن أحسن ما يتوسل به إلى دخول الجنة ويتوصل به إلى الوصول إليها مطاوعة الوالد ورعاية جانبه.

وأمام هذا الحق للوالدين لا مندوحة للمسلم عن طاعة الوالدين، فإن كان اعتراضهما عليه متقدِّمٌ على زواجه ممَّن ارتضى دينها وخُلُقها فيجب طاعتهما واحتساب الأجر والثواب عند الله تعالى على امتثال أمرهما، ومن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه.

أما إذا كان الأمر بعد الزواج فلا بد من التريث قليلاً قبل الحكم في مسألة أمر الأب ابنه بتطليق امرأته، لما قد يترتب على هذا الأمر من التعدِّي والظلم، والظلم ظُلُماتٌ يوم القيامة. فطاعة الأب في هذا الأمر واجبة ما لم يكن ذلك لغرضٍ دنيويٍ أو حاجةٍ في نفسِه، فإن وُجِدَ الغَرَض آلت المسألة إلى إيقاع الظلم بالزوجة، وهو محرم، لا طاعة فيه لأحدٍ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولكن الطاعة في المعروف.

وقد سُئل إمام أهل السنَّة أحمد بن حنبل رحمه الله عن الرجل يأمر ابنه بتطليق امرأته؟ فقال: إذا كان أبوك مثل عمر فطلِّقها. فلا بد للأبناء من بر الآباء، ولابد للآباء من تقوى الله فيما يأمرون به أبناءهم، فلا يأمرون بمنكر ولا يحرِّضون على مظلمةٍ، وليحذَر الآمر والمؤتمِر من تعدي حدود الله فإن {وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [الطلاق:١]

أما إذا أمر الأبوان الابنة بمخالعة زوجها أو طلب الطلاق منه، فلا طاعة لهما في ذلك، لأن ولايتها انتقلت إلى الزوج بالنكاح، وحقُّه مقدَّم على حقِّهما، فلا طاعة لهما في مطلب كهذا ولا ما هو دونه إذا ما أباه الزوج.

الهوامش والمصادر

(١) رواه ابن وهب في الجامع وأحمد في المسند ـ باقي مسند الأنصار برقم ٢٢٩٥١ والبغوي في شرح السنة ٤٢٠/٣ ط المكتب الإسلامي، وابن النجار في ذيل التاريخ (٢/١٣٤/١٠) من طريق عبد الرزاق، وعبد الرزاق في المصنف رقم ٢٠١٩٩٩، والحاكم (٢٠٨/٣) وصححه ووافقه الذهبي، وقال الحافظ في الإصابة (١/ ٦١٨) إسناده صحيح، قال الصدر المناوي وغيره: وصح لنا برواية الحاكم والبيهقي أن قوله كان أبر الناس من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بمدرج ثم

بسطه، وقال الألباني إسناده صحيح على شرط الشيخين السلسلة الصحيحة برقم ٩١٣، صحيح الجامع برقم ٣٣٧١، مشكاة المصابيح برقم ٤٨٥٤

(٢) تفسير القاسمي ـ محاسن التأويل ج١-٢ ص ١٧٨دار الفكر (٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي ج١ ص ٩٥٤ ط دار الغد العربي (٤) تفسير القاسمي ـ محاسن التأويل ج٥ ص ١٣٩دار الفكر (٥) الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي ج٤ ص ٢٥١ (٦) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ١٨٧ (٧) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٢٠٧ برقم ٧٩٢٠ (٨) الآداب الشرعية ـ ابن مفلح ج١ ص ٤٧٩ مؤسسة الرسالة (٩) رواه الترمذي وقال حسن صحيح ـ كتاب تفسير القرآن برقم ٣١١٣

(١٠) في ظلال القرآن ـ دار الشروق ص ٢٧٨٨ (١١) رواه البخاري ـ كتاب مواقيت الصلاة برقم ٤٩٦ (١٢) رواه مسلم ـ كتاب الإيمان برقم ١٣٠ (١٣) رواه الطبراني (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٥٠٧ في صحيح الجامع. السيوطي / الألباني (١٤) فيض القدير للمناوي ٥٢٨/٢ (١٥) رواه الترمذي ـ كتاب البر والصلة برقم ١٨٢٢ (صحيح) انظر حديث رقم: ٧١٤٥ في صحيح الجامع والحديث أورده الشيخ الألباني في الصحيحة برقم ٩١٤ وقال رحمه الله بعد أن ذكر تصحيحه (قوله: فاحفظ ذلك الباب أو ضيِّعه؛ الظاهر من السياق أنه قول أبي الدرداء غير مرفوع)

خير ما اكتنز الناس

عن أبي أمامه –رضي الله عنه–، قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:

(قلب شاكر، ولسان ذاكر، وزوجة صالحة تعينك على أمر دنياك ودينك، خير ما اكتنز الناس) (١)

كلمات إيمانية تكتب بماء الذهب، وأحاديث محمدية كالواحة الغناء، يشعر ساكنيها أنهم في سكينة وروحانية، لذتها تفوق كل لذة، ويتعجبون من هؤلاء المعرضون عن هذا الخير، أو من الباحثين عن طريق النجاة ذات اليمين وذات الشمال، وهو أمامهم في كتاب ربهم وهدي نبيهم.

القلب الشاكر (٢)

القلب الشاكر قلب عامر بالإيمان، خال من أدران الشرك والمعاصي، ولأن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر. كان الشكر من أجل المقامات، وقد أمر الله عباده به، ونهى عن ضده، فقال تعالى: {وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [النحل:١١٤] وقال تعالى: {وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [البقرة:١٥٢]

وقسم سبحانه وتعالى الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، فقال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} [الإنسان:٣]

كما قرن الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال جل ذكره: {مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً} [النساء:١٤٧]

بل جعله الله تعالى غاية خلقه وأمره، فقال تعالى: {وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل:٧٨] وقال: {وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت:١٧]

وأخبر سبحانه أن رضاه في شكره، فقال تعالى: {وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر:٧]

وأن أهل الشكر هم المخصوصين بمنته عليهم من بين عباده، فقال تعالى: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام:٥٣]

وأثنى جل شأنه على أهل الشكر، ووصف به خواص خلقه، فقال تعالى في إبراهيم عليه السلام: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ}]النحل:١٢٠-١٢١] وقال عن نوح عليه السلام: {ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً} [الإسراء:٣] وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر، وخطاب العباد بأنهم ذريته، إشارة إلى الإقتداء به، فإنه أبوهم الثاني، لأن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا إلا من ذريته، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر، فإنه كان عبدا شكورا.

واشتق تبارك وتعالى لأهل الشكر اسما من أسمائه، فإنه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكر مشكوراً، فالشكر هو غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده، وهم خواصه، فقال تعالى: {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ:١٣]

فمن يشكر الله فقد عبده حق العبادة، ومن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته تعالى، {وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة:١٧٢]

ولعظم مكانة الشكر كان هدف إبليس الأول هدمه في نفوس العالمين، فقال تعالى إخبارا عن إبليس اللعين: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ} [الأعراف:١٦] قيل هو طريق الشكر {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف:١٧]

وفي الصحيح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قام حتى تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (أفلا أكون عبدا شكورا) (٣)

وعن معاذ بن جبل –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أخذ بيده، وقال: (يا معاذ، إني والله لأحبك، فلا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك) (٤)

وعنه –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها) (٥) فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ} [التوبة:٧٢] في مقابلة شكره بالحمد.

والشكر قيد النعم وسبب المزيد، كما قال عمر بن عبد العزيز: "قيدوا نعم الله بشكر الله عز وجل" (٦)

وعن علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– أنه قال لرجل من همزان: "إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد" (٧)

وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد؟ قال: "أصبحنا مغرقين في النعم، عاجزين عن الشكر، يتحبب إلينا ربنا وهو غني عنا، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون" (٨)

وعن سفيان في قوله تعالى: {سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [القلم:٤٤] قال: "يسبغ عليهم النعم، ويمنعهم الشكر" وقال غيره: "كلما أحدثوا ذنبا، أحدث لهم نعمة". (٩)

وحقيقة الشكر هي: ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافا، وعلى قلبه شهودا ومحبة، وعلى جوارحه انقيادا وطاعة. ولابد أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من

حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى، والنزول في جواره، والنظر إلى وجهه على الدوام، وأمارته أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله، لذلك قال أحد العلماء: "شكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان، أما شكر الخاصة فعلى التوحيد والإيمان وقوت القلوب".

والشكر مبني على خمسة أركان هي (١٠): اعتراف العبد بنعمته تعالى، وخضوع الشاكر للمشكور، وثناؤه عليه بها، وحبه له، وأن لا يستعملها فيما يكره.

«اعتراف العبد بنعمته تعالى» هو ركن الشكر الأعظم الذي يستحيل وجود الشكر بدونه، فكثير من الناس تحسن إليه وهو لا يدري، فلا يصح من هذا الشكر، فلا تأتي من العبد حقيقة الشكر إلا باعترافه وإقراره أن كل النعم منه تبارك وتعالى، فإن خالجه ريب في هذا لم يكن عارفا لا بالنعمة ولا بالمنعم، بل إنه بمجرد إقراره بأن النعم كلها منه جل وعلا يجعله في مصاف الشاكرين، كما قال داود عليه السلام: "يا رب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة عليَّ من عندك تستوجب بها شكرا" فقال: "الآن شكرتني يا داود" (١١)

ويتبع ذلك الركن «خضوع الشاكر للمشكور» بأن يظهر الفقر والفاقة إلى تلك النعمة، ويكون على يقين بأن وصولها إليه بغير استحقاق منه ولا بذل ثمن، بل يرى نفسه فيها كالطفيلي، كما قال حمدون القصار: "شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طفيلياً"، وقال الجنيد: "الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة" (١٢)

ويتبع ذلك الركن «ثناء العبد على الله بهذه النعمة» وهو نوعان: ثناء عام، وخاص، فالعام وصفه تعالى بالجود والكرم والبر والإحسان وسعة العطاء ونحو ذلك، أما الخاص فهو التحدث بنعمته جل وعلا والإخبار بوصولها إليه من جهته، كما قال تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} [الضحى:١١]، والثناء يلزم «المحبة» إذ لا يمكن أن يتحقق بدونها.

أما الركن الخامس فهو الذي به كمال الشكر وتمامه، ألا هو: «استعمال نعم الله تعالى في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته».

قال رجل لأبي حازم: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ فقال: "إن رأيت بهما خيرا أعلنته، وإن رأيت بهما شرا سترته" قال: فما شكر الأذنين؟ قال: "إن سمعت بهما خيرا وعيته، وإن سمعت بهما شرا دفعته" قال: فما شكر اليدين؟ قال: "لا تأخذ بهما ما ليس لهما، ولا تمنع حقا لله هو فيهما" قال: فما شكر البطن؟ قال: "أن يكون أسفله طعاما، وأعلاه علما" قال: فما شكر الفرج؟ قال: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ} [المعارج:٢٩-٣٠] قال: فما شكر الرجلين؟ قال: "إن علمت ميتا تغبطه استعملت بهما عمله، وإن مقته رغبت عن عمله، وأنت شاكر لله" (١٣)

وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه، فما نفعه ذلك من الحر، والبرد والثلج والمطر.

اللسان الذاكر

أما اللسان الذاكر فقد حاز صاحبه الخير كله، لأن الذكر هو المنزلة الكبرى التي منها يتزود العارفون وفيها يتجرون وإليها دائما يترددون، وهو منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب العارفين التي متى فارقتها صارت الأجساد لها قبوراً وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورا، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب والسبب الواصل والعلامة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

به يستدفعون الآفات ويستكشفون الكربات وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون، يدع القلب الحزين ضاحكا مسرورا ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورا، وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة بل هم يؤجرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال قياما وقعودا وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها.

والذكر باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.. قال الحسن البصري: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق (١٤)

قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت:٤٥] وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون:٩] وقال: {وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ} [الأنفال:٤٥]

وعن أبي الدرداء –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟) قالوا بلى يا رسول الله. قال: (ذكر الله) (١٥)

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (سبق المفردون) قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) (١٦)

وعن عبد الله بن بسر –رضي الله عنه– أن رجلا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإيمان قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به. فقال –صلى الله عليه وسلم–: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى) (١٧)

- فكفاك يا من تطمع في الحسنات أن تتشبث بهذا الحديث الكريم حيث يقول –صلى الله عليه وسلم–: (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟) فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: (يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة) (١٨)
- وكفاك يا من أثقلت الذنوب كاهله وتسلط عليه الشيطان أن تلزم العمل بهذا الحديث حيث يقول –صلى الله عليه وسلم–: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب،

وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك، ومن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر) (١٩)

- وكفاك يا من ترغب في الخير أن تكون من أهل هذا الحديث، فعن سعد بن أبي وقاص –رضي الله عنه– أن أعرابياً جاء إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: يا رسول الله علمني كلمات أقولهن. قال: (قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم) قال: فهؤلاء لربي فما لي؟ قال: (قل: اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني) فلما ولى الأعرابي قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (لقد ملأ يديه من الخير) (٢٠)
- وكفاك يا من تعلقت نفسه بالجنة قوله –صلى الله عليه وسلم–: (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) (٢١)

فالذكر حقاً كنز الدنيا كما هو كنز الآخرة أيضا.. فعن أبي موسى الأشعري –رضي الله عنه– قال: قال لي النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟) فقلت: بلى يا رسول الله. قال (قل: لا حول ولا قوة إلا بالله) (٢٢)

والخير في هذا الجانب كثير وكثير ولولا خشية الإطالة لامتد الحديث صفحات وصفحات.

الزوجة الصالحة

أما الزوجة الصالحة فهي خير المتاع الذي من حرمه فقد حرم السعادة في الدنيا والآخرة، لأن أثر الصحبة الصالحة في تهذيب النفس أمر لا ينكره إلا معاند، فالطبع لص كما يقولون تؤثر فيه سلوكيات المخالطين سلبا وإيجابا، ولذلك كان اختيار الرفيق قبل الطريق سمة العقلاء، فما بالك برحلة تمتد العمر كله.

والزوجة الصالحة التي تعرف حق الله تعالى أجدر أن تعرف حق الزوج، لأن رضا الله تعالى من رضاه وسخطه تعالى من سخطه، فتجدها تتفقد مواطن راحة زوجها بالعناية، وتبتعد عن كل ما يكرهه، فإذا خرج للعمل هتفت به قائلة: "اتق الله فينا، فإنا نصبر على الجوع، ولا نصبر على تبعات اللقمة الحرام"

ثم إذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله وولده، فشتان بينها وبين من هي في سخط دائم على أقدارها وزوجها وأولادها، وفي ذلك يقول –صلى الله عليه وسلم–: (إنما الدنيا متاع، وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة) (٢٣)

ويقول –صلى الله عليه وسلم–: (ثلاثة من السعادة، وثلاثة من الشقاء، فمن السعادة: المرأة الصالحة تراها فتعجبك، وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة [أي هنية سريعة المشي سهلة الانقياد]، فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق، ومن الشقاء: المرأة تراها فتسوؤك، وتحمل لسانها عليك، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفاً [بفتح القاف أي بطيئة السير]، فإن ضربتها أتعبتك، وأن تركتها لم تلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق) (٢٤)

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قيل لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– أي النساء خير؟ قال: (التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره) (٢٥)

لذلك كان اختيار المرأة الصالحة من أهم الشروط التي وضعها الإسلام لبناء الأسرة الكريمة.. فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك) (٢٦)

ويوضح الغزالي في الإحياء منهج اختيار الزوجة فيقول:

أن تكون صالحة ذات دين، فهذا هو الأصل، وبه ينبغي أن يقع الاعتناء، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها، أزرت بزوجها، وسودت بين الناس وجهه، وشوشت بالغيرة قلبه، وتنغص بذلك عيشه، فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل في بلاء

ومحنه، وإن سلك سبيل التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه، ومنسوبا إلى قلة الحمية والأنفة، وإذا كانت مع الفساد جميلة كان بلاؤها أشد، إذ يشق على الزوج مفارقتها فلا يصبر عنها ولا يصبر عليها (٢٧)

وقال الأصمعي: "ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله تعالى بمثل منكح صدق، ولا وضع نفسه بعد الكفر بالله تعالى بمثل منكح سوء". (٢٨)

فمن أنار الله بصيرته وأراد أن يسلك سبيل السعادة في الدنيا والآخرة لم يرض بالزوجة الصالحة بدلاً.

روي أن شريحا القاضي قابل الشعبي يوما، فسأله الشعبي عن حاله في بيته، فقال له: من عشرين عاما لم أر ما يغضبني من أهلي، قال له: وكيف ذلك؟ قال شريح: من أول ليلة دخلت على امرأتي رأيت فيها حسنا فاتنا، وجمالاً نادراً، قلت في نفسي: فلأطهر وأصلي ركعتين شكرا لله، فلما سلمت وجدت زوجتي تصلي بصلاتي، وتسلم بسلامي، فلما خلا البيت من الأصحاب والأصدقاء، قمت إليها فمددت يدي نحوها، فقالت: على رسلك يا أبا أمية، كما أنت، ثم قالت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبين لي ما تحب فآتيه، وما تكره فأتركه، وقالت: إنه كان في قومك من تتزوجه من نسائكم، ومن قومي من الرجال من هو كفء لي، ولكن إذا قضى الله أمرا كان مفعولا، ولقد ملكت فاصنع ما أمرك به الله، إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولك ...! .

قال شريح: فأحوجتني – والله يا شعبي – إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأصلي على النبي وآله وأسلم، وبعد، فإنك قلت كلاما إن ثبت عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما رأيت من حسنة فانشريها، وما رأيت من سيئة فاستريها! .

فقالت: كيف محبتك لزيارة أهلي؟ قلت: ما أحب أن يملني أصهاري، فقالت: فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك فآذن له، ومن تكره فأكره؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون،

وبنو فلان قوم سوء، قال شريح: فبت معها بأنعم ليلة، وعشت معها حولا لا أرى إلا ما أحب، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بفلانة في البيت، قلت: من هي؟ قالوا: ختنك – أي أم زوجك –، فالتفتت إلى، وسألتني: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، قالت: يا أبا أمية إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين: إذا ولدت غلاماً، أو حظيت عند زوجها، فو الله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة، فأدب ما شئت أن تؤدب، وهذب ما شئت أن تهذب، فمكثت معي عشرين عاما لم أعقب عليها في شيء إلى مرة، وكنت لها ظالما. (٢٩)

إن هذا الحديث ليحمل في طياته الدواء الناجع الذي نعالج به تلك المادية التي أصابتنا وحالت بيننا وبين السعادة الحقيقية وأضحى كل شيء يقوم بالمال وصار لسان حال الناس يقول (من معه قرشاً يساوي قرشاً) فسادت حياتنا أزمات ونكبات لن تحل إلا بالعودة إلى نور النبوة.

الهوامش والمصادر

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة. ج٤ ص ١٠٤ برقم ٤٤٣٠(صحيح) انظر حديث رقم: ٤٤٠٩ في صحيح الجامع للسيوطي. تحقيق الألباني، ورواه ابراهيم بن محمد الحسيني في البيان والتعريف ج٢ ص ١٣٢ ط دار الكتاب العربي وعزاه للبيهقي

(٢) انظر عدة الصابرين ـ لابن القيم ص ٩٣ ـ الباب التاسع عشر في أن الصبر نصف الإيمان والباب العشرون في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر.

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري / ابن حجر / كتاب تفسير القرآن باب ٣٢٨ برقم ٣٨٥٩ عن المغيرة بن شعبه (٤) رواه النسائي / كتاب السهو برقم ١٢٨٦، وأبي داود / كتاب الصلاة ١٣٠١، وأحمد / مسند الأنصار برقم ٢١١٠٣ بألفاظ متقاربة (٥) رواه مسلم عن أنس بن مالك / كتاب الذكر والدعاء برقم ٤٩١٥ (٦) شعب الإيمان / البيهقي ج٤ ص ١٣٠ برقم ٤٥٤٦ (٧) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢٧ برقم ٤٥٣٢ (٨) حلية الأولياء للأصبهاني ج ٦ ص ٢٤٨ (٩) حلية الأولياء / الأصبهاني ج ٧ ص ٧ (١٠) انظر مدارج السالكين لابن القيم ج٢ ص٢٤٤

(١١) تفسير الجامع لأحكام القرآن / ط دار الشعب ج ٩ ص٣٤٣ (١٢) حلية الأولياء / الأصبهاني ج ٧ ص ١٤٥ (١٣) حلية الأولياء / الأصبهاني ج٣ ص ٢٤٣، وشعب الإيمان / للبيهقي ج٤ ص١٣٤ (١٤) مدارج السالكين ـ ابن القيم ج٢ ص ٤٢٤ بتصرف (١٥) رواه الترمذي في سننه / كتاب الدعوات برقم ٣٢٩٩ (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٦٢٩ في صحيح الجامع السيوطي / الألباني (١٦) رواه مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء برقم ٤٨٣٤ (١٧) رواه الترمذي ـ كتاب الدعوات برقم ٣٢٩٧ (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٧٠٠ في صحيح الجامع (١٨) رواه مسلم عن مصعب بن سعد عن أبيه ـ كتاب الذكر والدعاء برقم ٤٨٦٦ (١٩) رواه مسلم عن أبي هريرة ـ كتاب الذكر والدعاء برقم ٤٨٥٧ (٢٠) رواه مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء برقم ٤٨٦٢ والنسائي وابن ماجة قال الألباني في تحقيق الكلم الطيب: وليس في رواية (فلما ولى ..) وإنما توجد في قصة أخرى من حديث عبد الله بن أبي أوفى (٢١) رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود ـ كتاب الدعوات برقم ٣٣٨٤ (حسن) انظر حديث رقم: ٣٤٦٠ صحيح الجامع (٢٢) البخاري ـ كتاب المغازي برقم ٣٨٨٣، ومسلم واللفظ له ـ كتاب الذكر والدعاء برقم ٤٨٧٥ (٢٣) رواه النسائي في سننه عن ابن عمرو. (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٠٤٩ في ضعيف الجامع قال الألباني في صحيح ابن ماجه رقم: ١٥٠٤ (صحيح). (٢٤) رواه الحاكم عن سعد (حسن) انظر حديث رقم: ٣٠٥٦ في صحيح الجامع. (٢٥) رواه النسائي ـ كتاب النكاح برقم ٣١٧٩(صحيح) انظر حديث رقم: ٣٢٩٨ في صحيح الجامع (٢٦) البخاري ـ كتاب النكاح برقم ٤٧٠٠ (٢٧) إحياء علوم الدين / الغزالي ج٣ ص ٣٤٥ (٢٨) سير أعلام النبلاء ج٥ ص ٣٤٥ (٢٩) أحكام النساء لابن الجوزي ص ١٣٤. ١٣٥ وأحكام القرآن لابن العربي ٤١٧/١

لقد حجرت واسعا

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال:

قام رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في صلاة وقمنا معه، فقال أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدا، ولا ترحم معنا أحدا. فلما سلم النبي –صلى الله عليه وسلم– قال للأعرابي: (لقد حجرت واسعا) يريد رحمة الله (١)

رحمة الله جائزة الطائعين، ومرجع التائبين، وملاذ المسرفين من القنوط من عفو رب العالمين.. إنها الغيث الذي تنبت به القلوب المؤمنة، والنور الذي يضيء الطرق الحالكة، والغيض الذي بلغ المؤمن غاية رشده، والفيض الذي تعجز الأقلام عن وصف حده، فرحمة الله تعالى تفيض على عباده جميعا، وتسعهم جميعا، وبها يقوم وجودهم وتقوم حياتهم، وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات كيانهم، وفي جميع حركاتهم وسكناتهم.

قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} [الأعراف:١٥٦]

وقال تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الحجر:٤٩]

حكي أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن، فقال أبو بكر الصديق –رضي الله عنه–: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: {قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً} [الإسراء:٨٤] فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران.

وقال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تعالى: {حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ

وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [غافر:١-٣] قدم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارة للمؤمنين.

وقال عثمان بن عفان -رضي الله عنه- عنه: قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: {نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الحجر:٤٩]

وقال علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر:٥٣]

قلت [أي القرطبي]: وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [الأنعام:٨٢] (٢)

وقال تعالى:

- {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} [الأنعام:١٣٣]
- {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً} [الكهف:٥٨]
- {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [الأنعام:٥٤]
- {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام:١٢]

أي وعد بها فضلا منه وكرما فلذلك أمهل. وذكر النفس هنا عبارة عن وجوده، وتأكيد وعده وارتفاع الوسائط دونه، ومعنى الكلام الاستعطاف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة.

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب غضبي) (٣) أي لما أظهر قضاءه وأبرزه لمن شاء أظهر كتابا في اللوح المحفوظ ـ أو فيما شاءه ـ مقتضاه خبر حق ووعد صدق (إن رحمتي تغلب غضبي) أي تسبقه وتزيد عليه (٤)

وقال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر:٥٣]

فعن ابن عباس –رضي الله عنه– أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا وزنوا وأكثروا فأتوا محمدا –صلى الله عليه وسلم– فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: {وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان:٦٨–٧٠] ونزلت: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} (٥)

وعن ابن عمر عن عمر –رضي الله عنهما– قال: لما اجتمعنا على الهجرة اتعدت أنا وهشام بن العاص بن وائل السهمي وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة، فقلنا الموعد أضاة بني غفار، وقلنا من تأخر منا فقد حبس، فليمض صاحبه، فأصبحت أنا وعياش ابن عتبة وحبس عنا هشام، وإذا به قد فتن فافتتن، فكنا نقول بالمدينة: هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله –صلى الله عليه وسلم– ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة، وكانوا هم أيضا يقولون هذا في أنفسهم، فأنزل الله عز وجل في كتابه: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} إلى قوله تعالى: {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} قال عمر فكتبتها بيدي ثم بعثتها إلى هشام، قال هشام: فلما قدمت علي خرجت بها إلى ذي طوى فقلت: اللهم فهمنيها، فعرفت أنها نزلت فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله –صلى الله عليه وسلم– (٦)

قال سيد قطب –رحمة الله–:

إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت، وإنها الدعوة للأوبة. دعوة العصاة المسرفين الشاردين المبعدين في تيه الضلال. دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده، وهو يعلم ضعفهم وعجزهم، ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم ومن خارجه، ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد، ويأخذ عليهم كل طريق، ويجلب عليهم بخيله ورجله، وأنه جاد كل الجد في عمله الخبيث! ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واه، وأنه مسكين سرعان ما يسقط إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه، والعروة التي تشده، وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن، فيشط به هنا أو هناك، ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون، ويوسع له في الرحمة، ولا يأخذه بمعصية حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط، وبعد أن يلج في المعصية ويسرف في الذنب ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره ولم يعد يقبل ولا يستقبل، في هذه اللحظة –لحظة اليأس والقنوط– يسمع نداء الرحمة الندي اللطيف: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ}

وليس بينه ـ وقد أسرف في المعصية وولج في الذنب وأبق عن الحمى وشرد عن الطريق ـ ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخية وظلالها السمحة المحيية. ليس بينه وبين هذا كله إلا التوبة. التوبة وحدها. الأوبة إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بواب يمنع، والذي لا يحتاج من يلج فيه إلى استئذان: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ} [الزمر: ٥٤–٥٥]

الإنابة والإسلام والعودة إلى أفياء الطاعة وظلال الاستسلام.. هذا هو كل شيء بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء!

إنه حساب مباشر بين العبد والرب، وصلة مباشرة بين المخلوق والخالق، من أراد الأوبة من الشاردين فليؤب، ومن أراد الإنابة من الضالين فلينب، ومن أراد الاستسلام من العصاة فليستسلم وليأت.. ليأت وليدخل، فالباب مفتوح، والفيء والظل والندى والرخاء كله وراء الباب، لا حاجب دونه ولا حسيب! (٧)

وقال تعالى: {حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [غافر:١-٣]

روي عن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– أنه افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه: اكتب من عمر إلى فلان، سلام عليك وأنا أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو (بسم الله الرحمن الرحيم حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ) ثم ختم الكتاب، وقال لرسوله لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول قد وعدني الله أن يغفر لي وحذرني عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع وحسنت توبته، فلما بلغ أمره، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أحدكم قد زل زلة فسددوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه. (٨)

وفي الحديث عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من االنار)(٩)

وعن أبي سعيد –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (لو تعلمون قدر رحمة الله لاتكلتم عليها) (١٠)

وقوله –صلى الله عليه وسلم– في هذا الحديث الجليل (حجّرت) أي ضيقت وزنا ومعنى، ورحمة الله واسعة كما قال تعالى: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف:١٥٦]،

فأنكر –صلى الله عليه وسلم– على الأعرابي لكونه بخل برحمة الله على خلقه، وقد أثنى الله تعالى على من فعل خلاف ذلك، حيث قال تعالى: { وَالَّذِينَ جَاؤُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر:١٠]

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود. تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها، وآخرها بأولها، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب، وتتفرد وحدها في القلوب تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، ويذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة كما يذكر أخاه الحي أو أشد، في إعزاز وكرامة وحب ويحسب السلف حساب الخلف، ويمضي الخلف على آثار السلف صفا واحدا، وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان تحت راية الله تغذ السير صعدا إلى الأفق الكريم متطلعة إلى ربها الواحد الرءوف الرحيم.

إنها صورة باهرة تمثل حقيقة قائمة كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم، صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثلا إلى صورة الحقد الذميم والهدم اللئيم التي تمثلها وتبشر بها الشيوعية في إنجيل كارل ماركس، صورة الحقد الذي ينغل في الصدور وينخر في الضمير على الطبقات وعلى أجيال البشرية السابقة وعلى أممها الحاضرة التي لا تعتنق الحقد الطبقي الذميم وعلى الإيمان والمؤمنين من كل أمة وكل دين!

صورتان لا التقاء بينهما في لمحة ولا سمة ولا لمسة ولا ظل صورة ترفع البشرية إلى أعلى مراقيها وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتها صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله بريئة الصدور من الغل طاهرة القلوب من الحقد وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقى بعضهم بعضا بالحقد والدغل والغش والخداع والالتواء حتى وهم في المعبد يقيمون الصلاة. فالصلاة ليست سوى أحبولة، والدين كله ليس إلا فخا ينصبه رأس المال

للكادحين {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} هذه هي قافلة الإيمان، وهذا هو دعاء الإيمان، وإنها لقافلة كريمة وإنه لدعاء كريم. (١١)

الهوامش والمصادر

(١) رواه البخاري ـ كتاب الأدب برقم ٥٥٥١ (٢) تفسير القرطبي ج: ١٠ ص: ٣٢٢ (٣) مسلم ـ كتاب التوبة برقم ٤٩٤١ (٤) تفسير القرطبي ج: ٦ ص: ٣٩٥ (٥) البخاري ـ كتاب تفسير القرآن برقم ٤٤٣٦

(٦) تفسير القرطبي ج: ١٥ ص: ٢٦٧ ورواه الحاكم ج٢ ص ٤٣٥ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ج٦ ص ٦١ رواه البزار ورجاله ثقات (٧) في ظلال القرآن ـ دار الشروق ـ ص ٣٠٥٨ (٨) تفسير القرطبي ج: ١٥ ص: ٢٩١ (٩) رواه البخاري ـ كتاب الرقائق برقم ٥٩٨٨ (١٠) رواه البزار (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٢٦٠ في صحيح الجامع (١١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ دار الشروق ص ٣٥٢٧

من معالم التربية النبوية

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–

(صل صلاة مودع كأنك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك، وايأس مما في أيدي الناس تعش غنيا، وإياك وما يعتذر منه) (١)

نصيحة نبوية غالية ممن آتاه الله جوامع الكلم، فيها النجاة لمن عقلها ثم عمل بها، وفيها الراحة والسعادة في الدنيا والآخرة، لأنها كلها نور خرج من مشكاة النبوة، وما ذاق الناس مر الشقاء إلا بالإعراض عن هذا النور، واتباعهم زبالة أفكار البشر، ودعاة الإصلاح كما يسمون أنفسهم، فسادت حياتهم ظلمة لا خلاص منها إلا بنور الانقياد.

صل صلاة مودع

الصلاة عماد الدين، وعصام اليقين، ورأس القربات، وغرة الطاعات، وأعظم العبادات التي تصل بين العبد وربه، فلا خير في دين لا صلاة فيه، ولا خير في صلاة لا خشوع فيها، فالخشوع روح الصلاة ومقصودها ولبها، وكما بين رسول الله –صلى الله عليه وسلم– لأمته أعمال الصلاة الظاهرة من صفة ركوعها وسجودها وسائر أعمالها، يبين لنا في هذا الحديث الجليل عماد الصلاة وأساسها الباطن ألا وهو «الخشوع»

"وأصل الخشوع هو لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع الجوارح، ولهذا كان –صلى الله عليه وسلم– دائما ما يقول في ركوعه في الصلاة: (خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي) (٢)" (٣)

قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} [المؤمنون:١–٢]

وقال عز وجل {وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ} [البقرة:٢٣٨]

قال مجاهد: "القنوت: الركود والخشوع وغض البصر وخفض الجناح من رهبة الله عز وجل". (٤)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (خمس صلوات افترضهن الله تعالى، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن وأتم ركوعهن وخشوعهن، كان له على الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه) (٥)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (من توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه [وفي رواية: لا يحدث فيهما نفسه] غفر له ما تقدم من ذنبه [وفي رواية: إلا وجبت له الجنة]) (٦)

وعن عثمان بن عفان –رضي الله عنه– قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: (ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله) (٧)

ولعظم أمر الخشوع كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– دائما ما يستعيذ بالله من قلب لا يخشع.. فعن زيد بن أرقم –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها) (٨)

"وأصل الخشوع الحاصل في القلب إنما هو من معرفة الله ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف فهو له أخشع، ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، فالعلم النافع هو ما باشر القلوب، فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار". (٩)

قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء} [فاطر:٢٨].. وقد عاتب الله تعالى من لا تخشع قلوبهم من ذكره فقال جل شأنه: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ

قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد:١٦].. قال ابن مسعود –رضي الله عنه–: "ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين". (١٠)

"ومتى تكلف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه مع فراغ قلبه من الخشوع كان ذلك خشوع النفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه، كما قال حذيفة –رضي الله عنه–: إياكم وخشوع النفاق. فقيل له وما خشوع النفاق؟ قال: أن ترى الجسد خاشعا، والقلب ليس بخاشع.

وقال الفضيل: كان يكره أن يُرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه.

ونظر عمر –رضي الله عنه– إلى شاب قد نكس رأسه، فقال: يا هذا ارفع رأسك، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر خشوعا غير ما في قلبه فإنما هو نفاق على نفاق.

ورأت عائشة –رضي الله عنها– شبابا يمشون ويتماوتون في مشيتهم. فقالت لأصحابها: من هؤلاء؟ فقالوا: نساك. فقالت: كان عمر بن الخطاب إذا مشي أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا أطعم أشبع، وكان هو الناسك حقا" (١١)

والراجح في حكم الخشوع في الصلاة أنه «واجب» كما حقق ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، حيث يقول:

قال الله تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} [البقرة:٤٥] وهذا يقتضي ذم غير الخاشعين، والذم لا يكون إلا لترك واجب أو فعل محرم، وإذا كان غير الخاشعين مذمومين دل ذلك على وجوب الخشوع، ويدل على وجوب الخشوع في الصلاة أيضا قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ} إلى قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [المؤمنون:١–١١]

فأخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة، وذلك يقتضي أنه لا يرثها غيرهم، وإذا كان الخشوع في الصلاة واجبا وهو المتضمن للسكون والخضوع فمن نقَر نقر الغراب لم يخشع في سجوده، وكذلك من لم يرفع رأسه في الركوع ويستقر قبل أن

ينخفض لم يسكن، لأن السكون هو الطمأنينة بعينها، فمن لم يطمئن لم يسكن ومن لم يسكن لم يخشع في ركوعه ولا في سجوده، ومن لم يخشع كان آثما عاصيا، ويدل على وجوب الخشوع في الصلاة أن النبي –صلى الله عليه وسلم– توعد تاركيه، كالذي يرفع بصره إلى السماء، فإن حركته ورفعه هو ضد حال الخاشع". (١٢)

وهل الصلاة الخالية من الخشوع يعتد بها أم لا؟

"قال جمهور العلماء أنه لا يعتد بها في الثواب إلا بما عقل منها وخشع فيها لله تعالى، وحجتهم الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد: (إن العبد يصلي الصلاة، ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها) (١٣) وقول عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما–: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها.

وأما الاعتداد بها في أحكام الدنيا وسقوط القضاء، فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعا وكانت السنن والأذكار عقبها جوابر ومكملات لنقصها، وإن غلب عليها عدم الخشوع وعدم تعقلها فقد اختلف الفقهاء في وجوب إعادتها، فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد وأبو حامد الغزالي في الإحياء، ولم يوجبها أكثر الفقهاء، واحتجوا بأن النبي – صلى الله عليه وسلم– أمر من سها في صلاته بسجدتي السهو ولم يأمره بالإعادة، كما ثبت في الحديث الصحيح: (إذا أذن المؤذن بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين، فإذا قضي التأذين أقبل، فإذا ثوب بالصلاة أدبر، فإذا قضي التثويب أقبل، حتى يخطر بين المرء ونفسه، يقول: أذكر كذا، أذكر كذا ما لم يذكر، حتى يظل لا يدري كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين وهو جالس) (١٤)

فلو كانت الصلاة باطلة لأمر الرسول الكريم بإعادتها، ولم يأمر بأن يسجد سجدتي السهو" (١٥)

وهناك العديد من الأمور التي يجب على المسلم مراعاتها لكي تحقق له تمام الخشوع في الصلاة، منها: أمور ظاهرة، وأخرى باطنة.

الأمور الظاهرة الواجب إتباعها لتحقيق الخشوع في الصلاة

إزالة ما يشغل المصلي من مكان الصلاة:

فعن القاسم عن عائشة رضي الله عنها أنه كان لها ثوب فيه تصاوير، ممدود إلى سهوة، فكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يصلي إليه، فقال: (أخريه عني، فإنه لا تزال تصاويره تعرض لي في صلاتي) فأخرته فجعلته وسائد. (١٦)

ولما دخل –صلى الله عليه وسلم– الكعبة ليصلي، فيها رأى قرني كبش، فلما صلى قال لعثمان الحجبي: (إني نسيت أن آمرك أن تخمر القرنين، فإنه ليس ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي) (١٧)

ويندرج تحت هذا الأمر: تجنب الصلاة في وقت الحر الشديد والبرد الشديد، إذا تيسر له ذلك، كما أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– بالإبراد في صلاة الظهر بالصيف الشديد الحر (١٨) لأن شدة الحر تمنع من الخشوع وحضور القلب.

كما يشمل هذا الأمر: اتخاذ السترة أمام المصلي، فعن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (إذا صلى أحدكم فليصل إلى سترة، وليدن منها، ولا يدع أحد يمر بين يديه، فإن جاء أحد يمر فليقاتله، فإنه شيطان) (١٩)

وفي رواية: (إذا صلى أحدكم إلى سترة فليدن منها، لا يقطع الشيطان عليه صلاته) (٢٠)

والسنة في الدنو من السترة أن يكون بينه وبينها ثلاثة أذرع، وبينها وبين موضع السجود ممر شاة (٢١) كما أوصى –صلى الله عليه وسلم– المصلي بأن لا يسمح لأحد أن يمر بينه وبين سترته، فقال: (إذا كان أحدكم يصلي، فلا يدع أحد يمر بين يديه، وليدرأه ما استطاع، فإن أبى فليقاتله، فإن معه القرين) (٢٢)

كما ينبغي أن لا يصلي وبحضرته طعام يشتهيه، فإذا حضر الطعام بدأ به ولا يعجل بالصلاة قبل أن تنقضي حاجته منه، وفي ذلك يقول رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:

(لا صلاة بحضرة الطعام) (٢٣) وقال –صلى الله عليه وسلم–: (إذا قرب العشاء وحضرت الصلاة فابدءوا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب، ولا تعجلوا عن عشائكم) وفي رواية: (إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة، فابدءوا بالعشاء ولا يعجلن حتى يفرغ منه) (٢٤)

أن لا يصلي خلف النائم والمتحدث

لما رواه أبو داود عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قوله: (لا تصلوا خلف النائم والمتحدث) (٢٥)

قال الخطابي: "أما الصلاة إلى المتحدثين فقد كرهها الشافعي وأحمد بن حنبل، وذلك من أجل أن كلامهم يشغل المصلي عن صلاته". (٢٦)

وقد كره مجاهد وطاووس ومالك الصلاة إلى النائم خشية أن يبدو منه ما يلهي المصلي عن صلاته (٢٧) فإذا أمن ذلك فلا تكره الصلاة خلف النائم.

ويدخل في هذا الأمر: الاحتراز من الصلاة في أماكن الضوضاء، ومرور الناس، ومجالس اللغو واللغط.

تجنب الأمور الخاصة بالمصلي التي تذهب خشوعه في الصلاة

كأن يصلي في ثوب فيه نقوش أو تصاوير: كما روت عائشة –رضي الله عنها– قالت: قام النبي –صلى الله عليه وسلم– يصلي في خميصة ذات أعلام، فنظر إلى علمها، فلما قضى صلاته، قال: (اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبي جهم، وأتوني بأنبجانية، فإنها ألهتني آنفا في صلاتي) (٢٨)

وكأن يصلي وهو حاقن أو حاقب: والحاقن: هو الحابس للبول، والحاقب: هو الحابس للغائط. وفي ذلك يقول المعصوم –صلى الله عليه وسلم–: (لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافع الأخبثان) (٢٩) ويقول –صلى الله عليه وسلم–: (إذا أراد أحدكم أن يذهب إلى الخلاء، وأقيمت الصلاة فليذهب إلى الخلاء) (٣٠)

وكأن يصلي وقد غلبه النعاس: فعن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (إذا نعس أحدكم في الصلاة فلينم حتى يعلم ما يقول) (٣١).. أي فليرقد حتى يذهب عنه النوم.

وعن عائشة –رضي الله عنها– أن رسوا الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (إذا نعس أحدكم وهو يصلي، فليرقد حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه) (٣٢)

مراعاة الآداب الظاهرة للصلاة

وضع اليد اليمنى على اليسرى: وهذا من هدي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– حيث يقول: (إنا معشر الأنبياء أمرنا أن نضع أيماننا على شمائلنا في الصلاة) (٣٣)

وسئل الإمام أحمد عن المراد بوضع اليدين إحداهما على الأخرى حال القيام؟ فقال: هو ذل بين يدي العزيز (٣٤)

وقال ابن حجر في الفتح: "قال العلماء: الحكمة في هذه الهيئة أنها صفة السائل الذليل، وهو أمنع من العبث، وأقرب إلى الخشوع" (٣٥)

النظر موضع السجود: لما ورد عن عائشة –رضي الله عنها– كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا صلى طأطأ رأسه، ورمى ببصره نحو الأرض. (٣٦)

ولما دخل –صلى الله عليه وسلم– الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها. (٣٧)

عدم الانشغال بتسوية الحصى: روى البخاري عن معيقيب –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال في الرجل يسوي التراب حيث يسجد: (إن كنت فاعلا فواحدة) (٣٨)

وقال –صلى الله عليه وسلم–: (لا تمسح وأنت تصلي، فإن كنت لابد فاعلا فواحدة) (٣٩)

وقد ثبت أن النبي –صلى الله عليه وسلم– سجد في ماء وطين وبقي أثر ذلك في جبهته (٤٠)

ولم يكن ينشغل في كل رفع من السجود بإزالة ما علق، فالاستغراق في الصلاة والخشوع فيها ينسي ذلك ويشغل عنه، وقد صح عنه –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (إن في الصلاة شغلا) (٤١)

وعن أبي الدرداء قال: "ما أحب أن لي حمر النعم، وأني مسحت مكان جبيني من الحصى".

وقال عياض: كره السلف مسح الجبهة في الصلاة قبل الانصراف [يعني الانصراف من الصلاة] (٤٢)

عدم التشويش بالقراءة على الآخرين: كما أمر بذلك الحبيب –صلى الله عليه وسلم– حيث قال: (ألا إن كلكم مناج ربه، فلا يؤذين بعضكم بعضا، ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة) أو قال: (في الصلاة) (٤٣)

ترك الالتفات في الصلاة: لحديث أبي ذر –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (لا يزال الله عز وجل مقبلا على العبد وهو في صلاته ما لم يلتفت، فإذا التفت انصرف عنه) (٤٤)

وقد سئل –صلى الله عليه وسلم– عن الالتفات في الصلاة؟ فقال: (اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد) (٤٥)

عدم رفع البصر إلى السماء: ففي الحديث الصحيح قال –صلى الله عليه وسلم: (إذا كان أحدكم في الصلاة فلا يرفع بصره إلى السماء أن يلتمع بصره) (٤٦)

أن لا يبصق أمامه في الصلاة، وأن يجاهد التثاؤب: لقوله –صلى الله عليه وسلم–: (إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه، فإنما يناجي الله تبارك وتعالى ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكا، وليبصق عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها) (٤٧)

وقوله –صلى الله عليه وسلم–: (التثاؤب من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع) (٤٨)

الطمأنينة في الصلاة: ولقد كان –صلى الله عليه وسلم– يطمئن في صلاته حتى يرجع كل عظم إلى موضعه (٤٩)

وعن أبي قتادة –رضي الله عنه– قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته، لا يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها) (٥٠)

الأمور الباطنة الواجب اتباعها لتحقيق الخشوع في الصلاة

١– أن تصلي صلاة مودع كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك

كما ورد في هذا الحديث الشريف الذي نحن بصدده.. قال المناوي (صل صلاة مودع) أي مودع لهواه مودع لعمره وسائر إلى مولاه (كأنك تراه) أي عياناً (٥١)

فصلاة العبد صلاة من يظن ألا يصلي غيرها، ويستحضر فيها قرب الله منه، وأنه بين يديه كأنه يراه، أجدر أن يولد في القلب الخشوع، كما ثبت في الحديث الحسن عنه –صلى الله عليه وسلم–: (اذكر الموت في صلاتك، فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته لحري أن يحسن صلاته، وصل صلاة رجل لا يظن أنه يصلي غيرها) (٥٢)

٢– تدبر آيات القرآن وغيرها من أذكار الصلاة

ومما يعين على التدبر: أن يقطع قراءته آية آية، والوقوف عند رؤوس الآيات، وأن يُحسن صوته بالقرآن، ولقد كان –صلى الله عليه وسلم– يقرأ بالسورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها (٥٣)

ومما يعين على التدبر –أيضا–: ترديد الآيات، ومعاودة النظر في المعنى، والتفاعل معها. وقد ثبت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قام ليلة بآية يرددها حتى أصبح (٥٤)

وقال حذيفة –رضي الله عنه–: صليت مع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ذات ليلة يقرأ مسترسلا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ. (٥٥)

٣– أن يعلم أن الله تعالى يجيبه في صلاته

ففي الحديث القدسي: (قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: العبد الحمد لله رب العالمين. قال الله: حمدني عبدي. فإذا قال: الرحمن الرحيم. قال الله: أثنى علي عبدي. فإذا قال: مالك يوم الدين. قال الله: مجدني عبدي. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. قال الله: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل) (٥٦)

فينبغي على العبد إجلال هذه المخاطبة، ووضعها الموضع اللائق بها، حيث يقول – صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم إذا قام يصلي، فإنما يناجي ربه، فلينظر كيف يناجيه) (٥٧)

٤– تنويع السور والأذكار والأدعية في الصلاة

وهذا كفيل بأن يذهب الملل الحاصل من آلية التكرار، ولا يجعل الصلاة عملا روتينيا يكرر بدون فهم ولا تدبر، ويجدد المعاني في قلب المصلي، وهو أكمل للخشوع، والسنة النبوية المطهرة حافلة بالعديد من الأذكار والأدعية المتنوعة التي تعين على ذلك.

٥– غلق مداخل الشيطان وصد وسوسته

يقول في ذلك العلامة ابن القيم: "فالعبد إذا قام في الصلاة، غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام وأقربه وأغيظه للشيطان وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يعده ويمنيه وينسيه ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة، فيتهاون بها فيتركها، فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام في ذلك المقام، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها" (٥٨)

وهناك العديد من التوجيهات النبوية التي تدحض كيد الشيطان ووسوسته لمن وفقه الله تعالى وعمل بها

فعن أبي العاص –رضي الله عنه– قال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي. فقال –صلى الله عليه وسلم–: (ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل على يسارك ثلاثا) قال ففعلت ذلك فأذهبه الله عني. (٥٩)

ويقول –صلى الله عليه وسلم–: (إن أحدكم إذا قام يصلي، جاء الشيطان فلبس عليه [أي خلط عليه صلاته وشككه فيها] حتى لا يدري كم صلى، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس) (٦٠)

وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– سئل عن الرجل يخيل إليه في صلاته أنه أحدث ولم يحدث؟ فقال –صلى الله عليه وسلم–: (إن الشيطان يأتي أحدكم وهو في صلاته حتى يفتح مقعدته، فيخيل إليه أنه أحدث ولم يحدث، فإذا وجد أحدكم ذلك فلا ينصرفن حتى يسمع صوت ذلك بأذنه، أو يجد ريح ذلك بأنفه) (٦١)

وايأس مما في أيدي الناس تعش غنيا

لأن من استغنى بالله لم يخف العدم.. يقول ابن القيم في تقرير قاعدة أن التعلق بغير الله من أعظم مفسدات القلب:

"فليس عليه أضر من ذلك ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله، وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصودة من الله عز وجل بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل.

قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً} [مريم:٨١-٨٢]

وقال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ} [يس:٧٤- ٧٥]

فأعظم الناس خذلانا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت، وبالجملة فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخذلان". (٦٢)

وقال أبو حاتم: أشرف المنى، ترك الطمع إلى الناس، إذ لا غنى لذي طمع، وتارك الطمع يجمع به غاية الشرف، فطوبى لمن كان شعار قلبه الورع، ولم يعم بصره الطمع، ومن أحب أن يكون حرا فلا يهوى ما ليس له، لأن الطمع فقر، كما أن اليأس غنى، ومن طمع ذل وخضع، كما أن من قنع عف واستغنى. (٦٣)

وإياك وما يعتذر منه

فهذا أصل عظيم في حفظ المروءة، وأصل المروءة فعولة من لفظ (المرء) كالفتوة من الفتى، والإنسانية من الإنسان، ولهذا كانت حقيقتها: اتصاف النفس بصفات الإنسان التي فارق بها الحيوان البهيم والشيطان الرجيم.

فالمروءة هي: مراعاة الأحوال أن تكون على أفضلها، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق.

وقيل فيها أيضا: هي استعمال كل خلق حسن، واجتناب كل خلق قبيح. (٦٤)

والمروءة سجية جبلت عليها النفوس الزكية، وشيمة طبعت عليها الهمم العلية، وضعفت عنها الطباع الدنية، فلم تطق حمل أشراطها السنية، وقد قيل لسفيان بن عيينة: قد استنبطت من القرآن كل شيء فأين المروءة فيه؟ فقال في قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف:١٩٩]

ففيه المروءة وحسن الأدب ومكارم الأخلاق، فجمع في قوله تعالى {خذ العفو} صلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين وغير ذلك من أخلاق المطيعين، ودخل في قوله تعالى {وأمر بالعرف} صلة الأرحام وتقوى الله في الحلال والحرام وغض الأبصار والاستعداد لدار القرار، ودخل في قوله تعالى {وأعرض عن الجاهلين} الحض على التخلق بالحلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة والأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والفعال الرشيدة.

وقال جعفر بن محمد: لا دين لمن لا مروءة له.

وقال رجل للأحنف بن قيس: دلني على المروءة؟ فقال: عليك بالخلق الفسيح، والكف عن القبيح. (٦٥)

"ولا تنال المروءة إلا بعلو الهمة وشرف النفس، لأن علو الهمة هو الدافع على التقدم، ولذلك كان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يقول: لا تصغرن هممكم، فإني لم أر أقعد عن المكرمات من صغر الهمم. وأما شرف النفس فإن به يكون قبول التأديب، فالنفس إذا شرفت كانت للآداب طالبة وفي الفضائل راغبة.. قيل للأحنف بن قيس: بما سؤددك؟ قال: لو عاب الناس الماء لم أشربه. وكان رحمة الله عليه يقول: الكامل من عدت سقطاته، ويقول: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، إني أبغض الرجل يكون وصافا لفرجه وبطنه. وكان إذا أتاه رجل وسع له فإن لم يكن له سعة أراه كأنه يوسع له، وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي إذا أفاد إنسانا شيئا لم يره بأنه أفاده، وإن استفاد من أحد شيئا أراه بأنه استفاد منه، ويروى أن الشافعي كان مارا بالحذائين فسقط سوطه، فوثب غلام ومسحه بكمه وناوله، فأعطاه

سبعة دنانير، وكان محمد بن جرير الطبري إذا أهدى إليه بعض أصدقائه الشيء يقبله ويكافئه أضعافا لعظم مروءته" (٦٦)

إن المروءة إذا كانت تقتضي الإعراض عن كثير من الملذات، فإن في المروءة نفسها لذة تفوق كل النعم كما قال الشاعر:

تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

والمروءة ثلاث درجات.. يقول عنها ابن القيم:

"الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه: وهي أن يحملها قسرا على ما يجمل ويزين، وترك ما يدنس ويشين، ليصير لها ملكة في العلانية.

والدرجة الثانية: المروءة مع الخلق، بأن يستعمل معهم شروط الأدب والحياء والخلق الجميل، ولا يظهر لهم ما يكرهه هو من غيره لنفسه، وليتخذ الناس مرآة لنفسه، فكل ما كرهه ونفر عنه من قول أو فعل أو خلق فليجتنبه، وما أحبه من ذلك واستحسنه فليفعله، وصاحب هذه البصيرة ينتفع بكل من خالطه وصاحبه من كامل أو ناقص، وكثير من الناس يتعلم المروءة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضادها، كما روي عن بعض الأكابر أنه كان له مملوك سيئ الخلق غليظ لا يناسبه، فسئل عن ذلك؟ فقال: أدرس عليه مكارم الأخلاق.

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه وتعالى، بالاستحياء من نظره إليك واطلاعه عليك في كل لحظة ونفس، وإصلاح عيوب نفسك جهد الإمكان. (٦٧)

وخوارم المروءة عديدة جمعها رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في هذه المقولة البليغة من هذا الحديث (وإياك وما يعتذر منه) ونذكر لها بعض المظاهر التي تندرج تحت هذه القاعدة (٦٨)

اتباع الهوى: فإن من لا دين له يؤثر ما يهواه، وإن أداه إلى هلاكه في الآخرة، لضعف ناهي الدين، ومن لا مروءة له يؤثر ما يهواه، وإن ثلم مروءته أو عدمها، لضعف ناهي المروءة، فأين هذا من قول الشافعي: لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتي لما شربته.

الاستخفاف بالناس والتشهير بهم: وخاصة العلماء والدعاة، فالمبالغة والتهويل في نقد الغير غفلة عن عيب النفس، يقول ابن القيم: من قواعد الشرع والحكمة أيضا أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل منه مالا يحتمل لغيره ويعفى عنه مالا يعفى عن غيره، فإن المعصية خبث، والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه لا يحتمل أدنى خبث.

الإعلان بالفسق والفجور: حيث يقول السرخسي: ولا مروءة لمن يكون معلنا بفسق شرعا.

البول على قارعة الطريق المسلوكة، وفي الأماكن العامة.

التصريح بأقوال الخنا وما يستبشع في الملأ من غير حاجة ولا ضرورة.

الرقص والغناء والصفق بالأكف: وفي ذلك يقول النووي في مبحث رد الشهادة: ومن لا مروءة له كالرقاص.

سؤال الناس: يقول ابن القيم: وأما ظلمه لنفسه، فإنه أراق ماء وجهه، وذل لغير خالقه، وأنزل نفسه أدنى المنزلتين ورضي لها بأبخس الحالتين، ورضي بإسقاط شرف نفسه وعزة تعففه وراحة قناعته، وباع صبره وتوكله وقناعته بما قسم له، واستغناءه عن الناس بسؤالهم، وهذا عين ظلمه لنفسه إذ وضعها في غير موضعها، وأخمل شرفها ووضع قدرها وأذهب عزها، وصغرها وحقرها، ورضي أن تكون نفسه تحت نفس المسئول، ويده تحت يده، ولولا الضرورة لم يبح ذلك الشرع.

مجالسة أهل الأهواء والبدع وصحبة الأراذل: لأن مجالستهم تذهب بهيبة المرء وتحط بإيمانه وتذري بإسلامه، فإن لم يسلك مسلكهم شاركهم في وزرهم، ولم يزل الصالحون يتناهون عن الهوى والمراء فيه ويحثون على التمسك بأهداب السنة والعض عليها بالنواجذ، وقد سأل ربيعة الإمام مالك من السفلة يا مالك؟ قال: الذي يأكل بدينه. قال: فمن سفلة السفلة؟ قال الذي يأكل غيره بدينه.

سوء العشرة مع الأهل والجيران وشتم الناس أو الدواب: وقد كان أبو الحوزاء الربعي لا يلعن شيئا قط، ولم يأكل شيئا لعن قط، حتى أنه كان ليرشو الخادم في الشهر الدرهم والدرهمين حتى لا يلعن الطعام إذا أصابه حر التنور.

الهوامش والمصادر

(١) رواه البخاري في (التاريخ الكبير) (٢١٦/٢/٣) برقم ٢٢٠٨ والمخلص في (الفوائد المنتقاة) (٢/٧٤/٦) والطبراني في (المعجم الأوسط) (٤٥٨٨) والقضاعي في (مسند الشهاب) (٢/٨٠) والبيهقي في (الزهد) (١/٦٢-٢) والقاضي الشريف أبو علي في (مشيخته) (٢/١٧٣/١) وابن النجار في (ذيل تاريخ بغداد) (١/١٦/١٠) والضياء المقدسي في (المختارة) عن أبي علي الحسن بن راشد بن عبد ربه عن نافع قال سمعت ابن عمر يقول (أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- رجل فقال يا رسول الله حدثني حديثا واجعله موجزا فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم- ..) فذكره وقال الضياء: [راشد بن عبد ربه لم يذكره ابن حاتم في كتابه] وصححه ابن حجر الهيتمي في (أسنى المطالب في صلة الأقارب) (ق ١/٢٥) أورده السيوطي في الجامع الصغير (صحيح الجامع ٣٧٧٦) وقال: رواه أبو محمد عبد الله بن عطاء الإبراهيمي في (كتاب الصلاة) وابن النجار في ذيل تاريخ بغداد، وقال الألباني في الصحيحة: حديث حسن عندي أو صحيح فإن له شواهد تقويه (الصحيحة ١٩١٤)

(٢) رواه مسلم عن على بن أبي طالب حديث رقم ١٦٧٢ كتاب صلاة المسافرين باب ٢٦

(٣) الخشوع في الصلاة ابن رجب الحنبلي ص٤ (٤) تعظيم قدر الصلاة (١٨٨/١) (٥) رواه أبو داود برقم ٤٢٥ عن عبادة ابن الصامت باب في المحافظة على وقت الصلاة (٦) رواه البخاري برقم ١٤٩ كتاب الوضوء باب ٢٤ (٧) رواه مسلم برقم ٤٣٣ كتاب الطهارة باب ٤ (٨) رواه مسلم برقم ٢٧٢٢ باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٩) الخشوع في الصلاة / ابن رجب الحنبلي ص١٥ بتصرف يسير (١٠) تفسير القرطبي ج١٧ ص ٢٤٩ تفسير آيه {ألم يأن للذين آمنوا ... } الحديد ١٦

(١١) المصدر السابق وانظر ٣٣ سببا للخشوع في الصلاة / محمد صالح المنجد / مكتبة العلم - القاهرة ص٥

(١٢) مجموع الفتاوى / ابن تيمية (٥٥٣/٢٢-٥٥٨) (١٣) المسند للإمام أحمد حديث رقم ١٨٩١٤ عن عمار بن ياسر

(١٤) رواه البخاري برقم ٥٣٨ كتاب الأذان باب ٤ عن أبي هريرة (١٥) ابن القيم / مدارج السالكين ج١ ص ٥٦٣ بتصرف يسير (١٦) رواه مسلم (١٦٦٨/٣) (١٧) أخرجه أبو داود (٢٠٣٠) وهو في صحيح الجامع السيوطي / الألباني (٢٥٠٤) (١٨) البخاري كتاب مواقيت الصلاة حديث رقم ٤٧٢ عن ابن عمر

(١٩) رواه أبو داود برقم (٤٤٦/١٦٩٥) وهو في صحيح الجامع برقم (٦٥١) (٢٠) رواه أبو داود برقم (٤٤٦/١٦٩٥) وهو في صحيح الجامع برقم(٦٥٠) (٢١) البخاري، أنظر الفتح (٥٧٤/١، ٥٧٩) (٢٢) رواه مسلم (٢٦٠/١) وهو في صحيح الجامع برقم (٧٥٥) (٢٣) رواه مسلم برقم (٥٦٠) كتاب المساجد باب ١٦ (٢٤) متفق عليه، البخاري، كتاب الأذان، باب إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة، ومسلم رقم (٥٧٥، ٥٥٩) (٢٥) أبو داود برقم ٦٩٤ وصحيح الجامع برقم ٧٣٤٩

(٢٦) عون المعبود (٣٨٨/٢) (٢٧) فتح الباري، باب الصلاة خلف النائم، كتاب الصلاة (٢٨) رواه مسلم برقم ١١١٨ كتاب المساجد باب ١٥ (٢٩) رواه مسلم برقم ٥٦٠ كتاب المساجد باب ١٦ (٣٠) رواه أبو داود برقم ٨٨، صحيح الجامع ٢٩٩عن عبد الله بن أرقم (٣١) رواه البخاري برقم ٢٠٠ كتاب الوضوء باب ٥٢ (٣٢) رواه البخاري برقم ٢٠٩ كتاب الوضوء باب ٥٢

(٣٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير رقم ١١٤٨٥ قال الهيثمي ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٥٥/٣) (٣٤) الخشوع في الصلاة، ابن رجب ص ٢١ (٣٥) فتح الباري ٢٢٤/٢

(٣٦) (٣٧) رواه البيهقي والحاكم وصححه قال الألباني في صفة الصلاة ص ٦٩ وهو كما قال (والإرواء ٣٥٤)

(٣٨) فتح الباري ٧٩/٣ (٣٩) رواه أبو داود رقم ٩٤٦ صحيح الجامع برقم ٧٤٥٢ (٤٠) البخاري حديث رقم ١٩١٤ (٤١) رواه البخاري، فتح الباري ٧٢/٣ (٤٢) الفتح ٧٩/٣ (٤٣) رواه أبو داود ٨٣/٢ وصحيح الجامع برقم ٧٥٢ (٤٤) رواه أبو داود برقم ٩٠٩ (٤٥) رواه البخاري، كتاب الأذان، باب الالتفات في الصلاة (٤٦) رواه أحمد ٢٩٤/٥ وهو في صحيح الجامع برقم٧٥٦ (٤٧) رواه البخاري، الفتح رقم ٥١٢/١٤١٦ كتاب الصلاة (٤٨) رواه مسلم ٧٢٨٣ كتاب الزهد والرقائق باب٩ (٤٩) صحح إسناده الألباني في صفة صلاة النبي –صلى الله عليه وسلم– ص ١٣٤ (٥٠) رواه أحمد وهو في صحيح الجامع برقم ٩٨٦

(٥١) فيض القدير للمناوي ص٤٥٣ (٥٢) السلسلة الصحيحة للألباني ١٤٢١ ونقل عن السيوطي تحسين الحافظ ابن حجر لهذا الحديث (٥٣) رواه مسلم برقم ٧٣٣ (٥٤) رواه ابن خزيمة (٢٧١/١) وأحمد (١٤٩/٥) وفي صفة الصلاة للألباني ص ١٠٢

(٥٥) رواه مسلم برقم ٧٧٢ (٥٦) رواه مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة برقم ٣٩٥

(٥٧) رواه الحاكم في مستدركه، صحيح الجامع برقم ١٥٣٨ (٥٨) الوابل الصيب / ابن القيم ص ٣٦

(٥٩) رواه مسلم برقم ٢٢٠٣ (٦٠) رواه البخاري كتاب السهو، باب السهو في الفرض والتطوع

(٦١) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم ١١٥٥٦ (ج١١ص٢٢٢) وقال في مجمع الزوائد (٢٤٢/١): رجاله رجال الصحيح

(٦٢) مدارج السالكين ج١ ص ٤٩٢ / طبعة دار الحديث / القاهرة (٦٣) المصدر السابق ص٢٥٢ ج٣

(٦٤) مدارج السالكين / ابن القيم / دار الحديث – القاهرة ج٢ ص ٣٦٦ (٦٥) صلاح الأمة في علو الهمة، د/ سيد العفاني / مؤسسة الرسالة ج٥ ص٣٠٨ (٦٦) المصدر السابق ص ٣١٣ (٦٧) مدارج السالكين / ابن القيم / دار الحديث – القاهرة ج٢ ص ٣٦٧ (٦٨) اقتبسنا هذه المظاهر من موسوعة صلاح الأمة في علو الهمة، د/ سيد العفاني / مؤسسة الرسالة ج٥ ص٣٢٩-٣٥٥

لا عليك ما فاتك من الدنيا

عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:

(أربع إذا كن فيك، فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحسن الخلق، وعفة مطعم) (١)

أربع خصال جامعة للفضائل كلها.. إنها الغنيمة الباردة التي من حازها لا ينبغي له أن يبكي ما فاته من حطام الدنيا، سواء كان مالا، أو ولدا أو عقارا أو جاه، فخصال الخير تبقى وحطام الدنيا زائل، وخصال الخير تنفع صاحبها في الدنيا بمحبة الخلق له وحسن الثناء عليه، وكذلك تنفعه في الآخرة بأن مكافأتها الجنة.. والانشغال بخصال الخير يثمر مجتمعا سويا لا يهضم فيه فقير ولا يظلم فيه ضعيف، أما التكالب على حطامها فلا ينتج إلا مجتمعا ماديا تسوده المصلحة والمنفعة والجري وراء كل لذة وشهوة.

قال طاووس: "إن هذه الأخلاق منائح يمنحها الله عز وجل من يشاء من عباده، فإذا أراد الله بعبد خيرا منحه منها خلقا صالحا". (٢)

إنها خصال الخير التي لا يبغي بها المؤمن الصادق بدلا، وإن فاتته بعد جنيها الدنيا بأسرها ومتاعها وزينتها، فحب الدنيا أقتل من السم.

صدق الحديث

عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) (٣)

وعن الحسن بن على –رضي الله عنهما– قال –صلى الله عليه وسلم–: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة) (٤)

قال الطيبي: "جاء هذا القول ممهداً لما تقدمه من الكلام، ومعناه إذا وجدت نفسك ترتاب في الشيء فاتركه فإن نفس المؤمن تطمئن إلى الصدق وترتاب من الكذب، فارتيابك من الشيء منبئ عن كونه مظنة للباطل فاحذره، وطمأنينتك للشيء مشعر بحقيقته فتمسك به، والصدق والكذب يستعملان في المقال والأفعال: وما يحق أو يبطل من الاعتقاد، وهذا مخصوص بذوي النفوس الشريفة القدسية المطهرة عن دنس الذنوب ووسخ العيوب".

والحاصل أن الصدق إذا مازج قلب الكامل امتزج نوره بنور الإيمان فاطمأن وانطفأ سراج الكذب، فإن الكذب ظلمة والظلمة لا تمازج النور. (٥)

قال ذو النون المصري: "الصدق سيف الله في أرضه، ما وضع على شيء إلا قطعه".

وقال أبو سليمان: "اجعل الصدق مطيتك والحق سيفك والله غاية طلبتك".

وقال: "من كان الصدق وسيلته كان الرضا من الله جائزته".

فعاقبة الصدق أحلى من العسل، قال يوسف بن أسباط: "يرزق الصدوق ثلاث خصال: الحلاوة، والملاحة، والمهابة". (٦)

وقال الفضيل: "لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال". (٧)

قال تعالى: {فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ} [محمد: ٢١]

قال الجنيد: "حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب".

وقال بعض الصالحين: "عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك فإنه ينفعك، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك"

روي أن ربعي بن حراش لم يكذب كذبة قط، فأقبل ابناه من خراسان وهما عاصيان قد تأجلا، فجاء العريف إلى الحجاج فقال: أيها الأمير، إن الناس يزعمون أن ربعي بن حراش لم يكذب كذبة قط، وقد قدما ابناه من خراسان وهما عاصيان، فقال الحجاج: علي به، فلما

جاء قال: أيها الشيخ، قال: ما تشاء. قال: ما فعل ابناك؟ قال: المستعان الله، خلفتهما في البيت. قال: لا جرم والله لا أسوؤك فيهما، هما لك (٨)

قال ابن مسعود: "لا يصلح الكذب في هزل ولا جد، ولا أن يعد أحدكم حبيبه شيئا ثم لا ينجزه به".

وقال إسماعيل بن عبيد الله المخزومي: "أمرني عبد الملك بن مروان أن أعلم بنيه الصدق كما أعلمهم القرآن، وأن أجنبهم الكذب، وإن كان فيه القتل". (٩)

وقال مطر الوراق: "خصلتان إذا كانا في عبد كان سائر عمله تبعا لهما: حسن الصلاة، وصدق الحديث".

وعن أنس –رضي الله عنه– قال: "إن الرجل ليحرم قيام الليل وصيام النهار بالكذبة يكذبها" (١٠)

وقال تعالى: {قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ} [الذاريات:١٠] أي الكذابون.. فعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: "كان أبغض الخُلق إليه –صلى الله عليه وسلم– الكذب"(١١)

وعنها قالت: "كان –صلى الله عليه وسلم– إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضا عنه حتى يحدث توبة". (١٢)

وعن محمد بن كعب القرظي أنه قال: "لا يكذب الكاذب إلا من مهانة نفسه عليه".

وقال بنان عن عامر: "من كذب فهو منافق. ثم قال: لا أدري أيهما أبعد غورا في النار الكذب أم الشح".

وقال مطرف بن طريف: "ما أحب أني كذبت وإن لي الدنيا وما فيها، كان سفيان يقول: ما أحب أني تعرضت لسخط الله".

وروي عن أبي العالية قوله: "أنتم أكثر صياما وصلاة ممن كان قبلكم، ولكن الكذب قد جرى على ألسنتكم".

وعن الأحنف بن قيس قال: "ليس للكذوب مرؤة، ولا للبخيل حياء، ولا لحاسد راحة، ولا لسيئ الخلق سؤدد".

وكان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– يقول: "لا تجد المؤمن كذابا". وقال أيضا: "لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه، ولكن انظروا إلى من إذا حدث صدق، وإذا ائتمن أدى، وإذا أشفى ورع".

وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال: "أبرار الدنيا: الكذب وقلة الحياء، من طلب الدنيا بغيرهما فقد أخطأ الطريق والمطلب، وأبرار الآخرة: الحياء والصدق، فمن طلب الآخرة بغيرهما فقد أخطأ الطريق والمطلب". (١٣)

قال تعالى: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً} [الأحزاب:٢٤].. ففي الصدق رفعة الدنيا والآخرة.

كان لقمان عبدا أسودا، غليظ الشفتين، مصفح القدمين، فأتاه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم، فقال له: ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا؟ قال: نعم. قال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: "صدق الحديث، والصمت عما لا يعنيني".

وعن ابن أبي فديك قال: "إن محاسن الأخلاق مخزونة عند الله عز وجل، إذا أحب عبدا منحه خلقا حسنا أو خلقا صالحا".

كلم عمر بن عبد العزيز الخليفة الوليد في شيء، فقال له: كذبت. فقال عمر: "ما كذبت مذ علمت أن الكذب يشين صاحبه"

وعن نافع، قال: دخل ابن عمر رضي الله عنهما المسجد، فطاف سبعا وصلى ركعتين ثم خرج، فلقيه رجل من قريش على باب المسجد، فقال: يا أبا عبد الرحمن، قد طفت وصليت. قال: نعم. قال: ما أسرع هذا. قال: "أجل، أنتم أكثر منا طوافا وصياما، ونحن خير منكم، نحن نأتي صدق الحديث وأداء الأمانة وإنجاز الوعد" (١٤)

وقالت عائشة رضي الله عنها: "خلال المكارم عشرة، تكون في الرجل، ولا تكون في ولده، وتكون في العبد، ولا تكون في سيده، يجعلها إليه حيث شاء: صدق الحديث، وصدق البأس، والمكافأة بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للجار [أي الإحسان]، والتذمم للصاحب، وإعطاء السائل، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء". (١٤)

كان عبد الملك بن مروان إذ دخل عليه رجل من أفق من الآفاق، قال: "أعفني من أربع، وقل بعد ما شئت: لا تكذبني فإن الكذوب لا رأي له، ولا تجبني فيما لا أسألك عنه، فإن في الذي أسألك عنه شغلا عما سواه، ولا تطرني فإني أعلم بنفسي منك، ولا تحملني على الرعية فإني إلى معدلتي ورأفتي أحوج".

والصدق در لا يتركه حر، والشريف من عدت سقطاته.. قال علي بن المديني: "لا أشبه الكذب إلا بثوب خلق لا ينتفع به".

وقال مطرف بن طريف: "ما أحب أن كذبت، وأن لي الدنيا وما فيها".

وقال إياس بن معاوية: "ما يسرني أني كذبت كذبة فغفرها الله عز وجل لي، وأعطى عليها عشرة آلاف درهم، ويعلم بها أبو معاوية بن قرة". يعني إجلالا لأبيه لا يطلع.

وقال بعض العقلاء: "إنما يكذب الإنسان ليصدق فليصدق وليستريح".

وقال الأحنف بن قيس: "ما كذبت منذ أسلمت إلا مرة واحدة".

وقال عبد الرحمن بن سلمة: "ما كذبت منذ أسلمت، إلا أن الرجل يدعوني إلى طعامه، فأقول: ما اشتهيه، وعسى أن لا يكون كذبا".

أقفل قتيبة بن مسلم ومعه بكر بن ماعز من خراسان، فصحب بكر رجلا، فقال له: يا بكر كذبت قط؟ فسكت عنه. قال: يا بكر كذبت قط؟ فسكت عنه. حتى عاد إلى حمام أعين، فقال: يا بكر كذبت قط؟ فقال: إنك قد أكثرت علي، وإني لم أكذب كذبة قط إلا واحدة، فإن قتيبة أخذنا بالسلاح فاستعرت رمحا، فلما مررت به قال: يا بكر، هذا السلاح لك؟ فقلت: نعم. وكان الرمح ليس لي

الصدق حلو وهو المر والصدق لا يتركه الحر
جوهرة الصدق لها زينة يحسدها الياقوت والدر

حفظ الأمانة

قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء:٥٨].. "هذه هي تكاليف الجماعة المسلمة وهذا هو خُلقها، والأمانات تبدأ من الأمانة الكبرى.. الأمانة التي

ناط الله بها فطرة الإنسان والتي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان.. أمانة الهداية والمعرفة والإيمان بالله عن قصد وإرادة وجهد واتجاه، ومن هذه الأمانة الكبرى تنبثق سائر الأمانات التي يأمر الله أن تؤدى ومن هذه الأمانات:

أمانة الشهادة لهذا الدين.. الشهادة له في النفس أولا بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة له. ترجمة حية في شعورها وسلوكها حتى يرى الناس صورة الإيمان في هذه النفس فيقولوا: ما أطيب هذا الإيمان وأحسنه وأزكاه، فتكون هذه شهادة لهذا الدين في النفس يتأثر بها الآخرون، والشهادة له بدعوة الناس إليه وبيان فضله ومزيته، ثم الشهادة لهذا الدين بمحاولة إقراره في الأرض منهجا للجماعة المؤمنة ومنهجا للبشرية جميعا وهي كبرى الأمانات.

ومن هذه الأمانات أمانة التعامل مع الناس ورد أماناتهم إليهم: أمانة المعاملات والودائع المادية، وأمانة النصيحة للراعي والرعية، وأمانة القيام على الأطفال الناشئة، وأمانة المحافظة على حرمات الجماعة وأموالها وثغراتها ... وسائر ما يجلوه المنهج الرباني من الواجبات والتكاليف في كل مجالات الحياة على وجه الإجمال". (١٥)

والأمانة تقع على الطَّاعة والعِبادة والوديعة والثقةِ والأمانِ، وقد جاء في كل منها حديث شريف:

عن أبي هريرة –رضي الله عنه–، قال –صلى الله عليه وسلم–: (الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن، اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين) (١٦)

فقوله (والمؤذن مؤتمن) أي أمين على صلاة الناس وصيامهم وإفطارهم وسحورهم، وعلى حرم الناس لإشرافه على دورهم، فعليه المحافظة على أداء هذه الأمانة.

وعن عائشة –رضي الله عنها– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (من غسل ميتا فأدى فيه الأمانة ولم يفش عليه ما يكون منه عند ذلك، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)، قال: (ليله أقربكم منه إن كان يعلم، فإن كان لا يعلم، فمن ترون أن عنده حظا من ورع وأمانة) (١٧)

وعن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها) (١٨)

وعن أبي أمامة –رضي الله عنه–، قال –صلى الله عليه وسلم–: (العارية مؤداة، والمنحة مردودة، والدين مقضي، والزعيم غارم) (١٩)

(العارية مؤداة) أي مردودة مضمومة (والمنحة مردودة) لأنه لم يعطه عينها، بل لبنها، فإذا مضت أيام اللبن ردها (والدَين مقضي) إلى صاحبه، أي صفته اللازمة هي القضاء (والزعيم) أي الكفيل يعني الضمين (غارم) ما ضمنه بمطالبة المضمون له سواء كان عن ميت ترك وفاء أم لا عند الشافعي ومالك خلافاً لأبي حنيفة، لأنه قول عام على تأسيس القواعد فحمل على عمومه فإن كانت الكفالة بالبدن فلا غرم عند الشافعي ومالك إلا أن مالكاً غرمه إذا لم يحضره والشافعي لا، والغرم أداء الشيء.

قال الطيبي: ومن وجب عليه حق لغيره فإما أن يكون على سبيل الأداء بما يتصل فهو العارية، أو بدون ما يتصل به فالمنحة، أو على القضاء من غير عينه فالدين، أو على الغرامة بالالتزام فالكفالة. (٢٠)

ومن الأمانة ائتمان المرأة على فرجها وتصديقها متى ادعت انقضاء عدتها في مدة يمكن في مثلها أن تنقضي العدة، فعن أبي بن كعب –رضي الله عنه– قال: "من الأمانة ائتمان المرأة على فرجها". (٢١)

وعن أبي هريرة –رضي الله عنه–، قال –صلى الله عليه وسلم–: (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك) (٢٢).

(أدّ) وجوباً من الأداء. قال الراغب: وهو دفع ما يحق دفعه وتأديته (الأمانة) هي كل حق لزمك أداؤه وحفظه، قال القرطبي: "والأمانة تشمل أعداداً كثيرة لكن أمهاتها الوديعة واللقطة والرهن والعارية: قال القاضي: "وحفظ الأمانة أثر كمال الإيمان، فإذا نقص الإيمان

نقصت الأمانة في الناس، وإذا زاد زادت". (إلى من ائتمنك) عليها، وهذا لا مفهوم له، بل غالبي والخيانة التفريط في الأمانة.

قال الحراني: "والائتمان: طلب الأمانة، وهو إيداع الشيء لحفظه حتى يعاد إلى المؤتمن"، ولما كانت النفوس نزّاعة إلى الخيانة، رواغة عند مضايق الأمانة، وربما تأولت جوازها مع من لم يلتزمها أعقبه بقوله (ولا تخن من خانك) أي لا تعامله بمعاملته، ولا تقابل خيانته بخيانتك فتكون مثله.

قال ابن العربي: "وهذه مسألة متكررة على ألسنة الفقهاء، ولهم فيها أقوال: الأول: لا تخن من خانك مطلقاً، الثاني: خن من خانك. قاله الشافعي، الثالث: إن كان مما ائتمنك عليه من خانك فلا تخنه، وإن كان ليس في يدك فخذ حقك منه. قاله مالك. الرابع: إن كان من جنس حقك فخذه، وإلا فلا. قاله أبو حنيفة.. والصحيح منها جواز الاعتداء بأن تأخذ مثل مالك من جنسه أو غير جنسه إذا عدلت لأن ما للحاكم فعله إذا قدرت تفعله إذا اضطررت" (٢٣)

وعن عبادة بن الصامت –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم) (٢٤)

الأمانة خلق النبيين والصديقين

فعن عائشة –رضي الله عنه– في هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم– قالت: "وأمر –تعني رسول الله–صلى الله عليه وسلم– عليا –رضي الله عنه– أن يتخلف عنه بمكة حتى يودي عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الودائع التي كانت عنده للناس" (٢٥)

وعن عبد الله بن عباس–رضي الله عنهما– قال: أخبرني أبو سفيان، أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم؟ فزعمت أنه أمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة. قال: وهذه صفة نبي (٢٦)

وعن الحسن أن أبا بكر الصديق–رضي الله عنه– خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "إن أكيس الكيس التقوى، وأحمق الحمق الفجور، ألا وإن الصدق عندي الأمانة، والكذب الخيانة". (٢٧)

وقال عمر بن عبد العزيز لجلسائه: "من صحبني منكم فليصحبني بخمس خصال: يدلني من العدل إلى ما لا أهتدي له، ويكون لي على الخير عونا، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ولا يغتاب عندي أحدا، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس. فإذا كان كذلك فحيهلا به، وإلا فهو في حرج من صحبتي والدخول علي" (٢٨).

وعن مليح بن وكيع قال: سمعت أبي يقول: كان والله أبو حنيفة عظيم الأمانة، وكان الله في قلبه جليلا كبيرا عظيما، وكان يؤثر رضاء ربه على كل شيء، ولو أخذته السيوف في الله لأحتمل، رحمه الله ورضي عنه رضا الأبرار، فلقد كان منهم" (٢٩)

وعن الفضيل بن عياض قال: "أصل الإيمان عندنا وفرعه وداخله وخارجه بعد الشهادة بالتوحيد وبعد الشهادة للنبي –صلى الله عليه وسلم– بالبلاغ وبعد أداء الفرائض: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وترك الخيانة، ووفاء بالعهد، وصلة الرحم، والنصيحة لجميع المسلمين".

قال معاذ: قلت: يا أبا علي، من رأيك تقوله أو سمعته؟ قال: لا، بل سمعناه، وتعلمناه من أصحابنا، ولو لم أجده عن أهل الثقة والفضل لم أتكلم به". (٣٠)

وقال سفيان بن عيينة: "من لم يكن له رأس مال، فليتخذ الأمانة رأس ماله" (٣١)

وعن ميمون بن مهران، قال: "جاء رجل إلى سلمان، فقال" أوصني. قال: لا تكلم. قال: لا يستطيع من عاش في الناس أن لا يتكلم. قال: فإن تكلمت فتكلم بحق، أو اسكت. قال: زدني. قال: لا تغضب. قال: إنه ليغشاني مالا أملكه. قال: فإن غضبت، فأمسك لسانك ويدك. قال: زدني. قال: لا تلابس الناس. قال: لا يستطيع من عاش في الناس أن لا يلابسهم. قال: فإن لابستهم فأصدق الحديث وأد الأمانة". (٣٢)

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال:٢٧]

قال القاسمي: "ويدخل في خيانة الله: تعطيل فرائضه ومجاوزة حدوده، وفي خيانة رسوله: رفض سنته وإفشاء سره للمشركين، وفي خيانة أماناتهم: الغلول في المغانم أي السرقة منها، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر". (٣٣)

والأمانات عامة هي: الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد، وسميت أمانة لأنها يؤمن معها من منع الحق، مأخوذ من الأمن، وعن زيد بن ثابت –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة، ورب مصل لا خلاق له عند الله تعالى) (٣٤)

قال ابن العربي: "والأمانة معنى يحصل في القلب، فيأمن بنوره المرء من الردى في الآخرة والدنيا، وأصله الإيمان" (وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة) كلما ضعف الإيمان بحب الدنيا ونقص والشهوات وذهبت هيبة سلطانه من القلوب اضمحلت الأمانة، وإذا ضعفت الأمانة وخانت الرعية فيها فأخرت الصلاة عن أوقاتها وقصر في إكمالها، أدى ذلك إلى ارتفاع أصلها. (٣٥)

وقال سلمان الفارسي –رضي الله عنه–: "إن الله تعالى إذا أراد بعبد شرا أو هلكة نزع منه الحياء، فلم تلقه إلا مقيتا ممقتا، فإذا كان مقيتا ممقتا نزعت منه الرحمة، فلم تلقه إلا فظا غليظا، فإذا كان كذلك نزعت منه الأمانة، فلم تلقه إلا خائنا مخونا، فإذا كان كذلك نزعت ربقة الإسلام من عنقه، فكان لعينا ملعنا". (٣٦)

وعن ابن عمر –رضي الله عنهما– قال –صلى الله عليه وسلم–: (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) (٣٧)

وقال عمر بن الخطاب –رضي الله عنه–: "لا يعجبنكم من الرجل طنطنته، ولكنه من أدى الأمانة، وكف عن أعراض الناس فهو الرجل".

وقال الحارث المحاسبي: "ثلاثة أشياء عزيزة أو معدومة: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن الخلق مع الديانة، وحسن الإخاء مع الأمانة". (٣٨)

وقال أنس بن مالك –رضي الله عنه–: "البيت الذي يكون فيه خيانة لا يكون فيه البركة" (٣٩)

حُسن الخلق

الخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصديقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وثمرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين.

قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم:٤].. قال ابن عباس: "لعلى دين عظيم، لا دين أحب إلي ولا أرضى عندي منه، وهو دين الإسلام".

فجعل –رضي الله عنه– الدين كله خلقا، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الدين.

وقال الحسن: "هو آداب القرآن".

وقالت أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها–: "كان خلقه القرآن". (٤٠)

وسُألت –رضي الله عنها– كيف كان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا خلا مع نسائه؟ قالت: "كان أكرم الناس، وألين الناس، وأحسنهم خلقا، وكان رجلا من رجالكم، وكان بساما ضحاكا". (٤١)

وعن النواس بن سمعان الأنصاري –رضي الله عنه– قال: سألت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن البر والإثم؟ فقال: (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس) (٤٢)

فقابل –صلى الله عليه وسلم– البر بالإثم، وأخبر أن البر حسن الخلق، والإثم حواز الصدور، وهذا يدل على أن حسن الخلق هو الدين كله، وهو حقائق الإيمان وشرائع

الإسلام، ولهذا قابله بالإثم، وفي حديث آخر: (البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر) (٤٣)

وقد فُسر حسن الخلق بأنه البر، فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب، والإثم حواز الصدور، وما حاك فيها، واسترابت به.

وعن أبي أمامة –رضي الله عنه– قال –صلى الله عليه وسلم–: (أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه) (٤٤)

فجعل البيت العلوي جزاء لأعلى المقامات الثلاثة وهي: «حسن الخلق» ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله.

قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:

(إن الناس لم يعطوا شيئا خيرا من خلق حسن) (٤٥)

(أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقا) (٤٦)

(اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) (٤٧)

(استقم وليحسن خلقك للناس) (٤٨)

(عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فو الذي نفسي بيده ما تجمل الخلائق بمثلهما) (٤٩)

(أثقل شيء في ميزان المؤمن خلق حسن، إن الله يبغض الفاحش المتفحش البذي) (٥٠)

(أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف) (٥١)

(إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وإن حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة) (٥٢)

(ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة) (٥٣)

(إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات الله بحسن خلقه وكرم ضريبته) (٥٤)

(ما عمل ابن آدم شيئا أفضل من الصلاة وصلاح ذات البين وخلق حسن) (٥٥)

(ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غدا؟ على كل هين لين قريب سهل) (٥٦)

(من كان سهلا هينا لينا حرمه الله على النار) (٥٧)

(إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون. قالوا: يا رسول الله ما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون) (٥٨)

(خياركم أطولكم أعمارا وأحسنكم أخلاقا) (٥٩)

(صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار ويزدن في الأعمار) (٦٠)

أربعة دعائم

قال أهل العلم: حسن الخلق يقوم على أربعة دعائم: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

- الصبر: يحمل العبد على الاحتمال وكظم الغيظ وكف الأذى والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة.. شتم رجل سلمان الفارسي –رضي الله عنه–، فقال له: "إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول". وشتم رجل الربيع بن خثيم، فقال له: "يا هذا، قد سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول". ويروى أن رجلا من قريش أغلظ القول لعمر بن عبد العزيز، فأطرق عمر زمانا طويلا ثم قال: "أردت أن يستفزني الشيطان بعز السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدا".

قال معاوية –رضي الله عنه–: "لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم".

وقال الأحنف بن قيس: "وجدت الحلم أنصر لي من الرجال".. وقال له رجل: علمني الحلم يا أبا بحر، فقال: "هو الذل يا ابن أخي، أتصبر عليه؟!".. وكان –رحمه الله– يقول: "لست حليما، ولكنني أتحالم". (٦١)

ويقول: "من لم يصبر على كلمة، سمع كلمات، ورب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه". (٦٢)

وقال: "ما تعلمت الحلم إلا من قيس بن عاصم –رضي الله عنه– لأنه قتل ابن أخ له بعض بنيه فأتي بالقاتل مكتوفا يقاد إليه فقال: ذعرتم الفتى! ثم أقبل على الفتى فقال: بئس ما فعلت! نقصت عددك، وأوهنت عضدك، وأشمت عدوك، وأسأت بقومك، وأثمت بربك، وقطعت رحمك، ورميت نفسك بسهمك.. خلوا سبيله، واحملوا إلى أم المقتول ديته فإنها غريبة! ثم انصرف القاتل وما حل قيس حبوته ولا تغير وجهه". (٦٣)

- العفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء والبخل، والكذب والغيبة والنميمة.

عن سفيان بن دينار قال: "قلت لأبي بشير ـ وكان من أصحاب علي ـ أخبرني عن أعمال من كان قبلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيرا ويؤجرون كثيرا، قلت ولم ذاك قال لسلامة صدورهم". (٦٤)

وجاء رجل فشكا للإمام أحمد جارا له، فقال: "إنك إن سببت الناس سبوك، وإن نافرتهم نافروك، وإن تركتهم لم يتركوك، وإن فررت منهم أدركوك، وإن جهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، كل زمام بسبعين ألف ملك". (٦٥)

وعن العتبي عن أبيه قال: "أعيا ما يكون الكريم إذا سأل حاجة، وأعيا ما يكون الحليم إذا خاطب سفيها". (٦٦)

- الشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته.

عن ابن سيرين قال: "كانوا يرون حسن الخلق عونا على الدين". (٦٧)

ورد صعصعة بن صوحان على علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– من البصرة، فسأله عن عبد الله بن عباس –رضي الله عنهما– وكان على خلافته بها، فقال صعصعة: يا أمير المؤمنين، إنه آخذ بثلاث، وتارك لثلاث: آخذ بقلوب الرجال إذا حدث، وبحسن الاستماع إذا حدث، وبأيسر الأمور إذا خولف، تارك للمراء، وتارك لمقاربة اللئيم، وتارك لما يعتذر منه (٦٨)

ويروى أنه كان بين عاصم بن عمر وبين رجل من قريش دور، فقال القرشي لعاصم: إن كنت رجلا فادخلها. فقال عاصم: أو قد بلغ بك الغضب هذا، هي لك. فقال القرشي: سبقتني، بل هي لك، فتركاها لا يدخلها واحد منهما حتى هلكا ثم لم يعرض لها أولادهما.

وعن أبي الحسن بن عطاء قال: "أربعة من علامات الأولياء: يصون سره فيما بينه وبين الله عز وجل، ويحفظ جوارحه فيما بينه وبين أمر الله عز وجل، ويحتمل الأذى فيما بينه وبين الناس، ويداري مع الخلق على تفاوت عقولهم. (٦٩)

- العدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على الجود السخاء الذي هو توسط بين الذل والقحة، وعلى خلق الشجاعة الذي هو توسط بين الجبن والتهور، وعلى خلق الحلم الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.. كان أبو حفص إذا غضب تكلم في حسن الخلق حتى يسكن غضبه ثم يرجع إلى حديثه (٧٠)

وقال الهيثم بن جميل: "يبلغني عن الرجل يقع في فأذكر استغنائي عنه فيهون علي" (٧١)

وعن مطرف قال: قال لي مالك بن أنس: ما يقول الناس في؟ قلت: أما الصديق فيثني، وأما العدو فيقع. قال" ما يزال الناس كذا لهم عدو وصديق، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها (٧٢)

عن أم الدرداء –رضي الله عنها– قالت: "بات أبو الدرداء ليلة يصلي، فجعل يبكي، وهو يقول: (اللهم أحسنت خلقي فحسن خلقي) حتى أصبح. فقلت: يا أبا الدرداء، ما كان دعاؤك منذ الليلة إلا في حسن الخلق؟ فقال: يا أم الدرداء، إن العبد المسلم يحسن خلقه حتى يدخله حسن الخلق الجنة، ويسيء خلقه حتى يدخله سوء خلقه النار، وإن العبد المسلم ليغفر له وهو نائم. قال: فقلت: كيف يا أبا الدرداء؟ قال: يقوم أخوه من الليل فيتهجد فيدعو الله عز وجل فيستجيب له، ويدعو لأخيه فيستجيب له فيه. (٧٣)

ودخل رجل على أبي الموجه، فقال: إني خارج من مرو، فلو وعظتني. فقال أبو الموجه:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل (٧٤)

عفة المطعم

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون:٥١]

فأمر جل شأنه بالأكل من الطيبات قبل العمل الصالح، وقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [البقرة:١٦٨]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة:١٧٢]

"وهذا الأمر بالإباحة والحل لما في الأرض –إلا المحظور القليل– يمثل طلاقة هذه العقيدة، وتجاوبها مع فطرة الكون وفطرة الناس. فالله خلق ما في الأرض للإنسان ومن ثم جعله له حلالا لا يقيده إلا أمر خاص بالحظر، وإلا تجاوز دائرة الاعتدال والقصد. ولكن

الأمر في عمومه أمر طلاقة واستمتاع بطيبات الحياة واستجابة للفطرة بلا كزازة ولا حرج ولا تضييق.

كل أولئك بشرط واحد، هو أن يتلقى الناس ما يحل لهم وما يحرم عليهم من الجهة التي ترزقهم هذا الرزق لا من إيحاء الشيطان الذي لا يوحي بخير لأنه عدو للناس بين العداوة لا يأمرهم إلا بالسوء وبالفحشاء وإلا بالتجديف على الله والافتراء عليه دون تثبت ولا يقين". (٧٥)

وسمي الحلال حلالا لانحلال عقدة الحظر عنه.

قال سهل بن عبد الله: "النجاة في ثلاثة: أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء بالنبي –صلى الله عليه وسلم–".

وقال أبو عبد الله الساجي: "خمس خصال بها تمام العلم، وهي: معرفة الله عز وجل، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السنة، وأكل الحلال.. فإن فقدت واحدة لم يرفع العمل".

وقال سهل: "ولا يصح أكل الحلال إلا بالعلم، ولا يكون المال حلالا حتى يصفو من ست خصال: الربا، والحرام، والسحت، . وهو اسم مجمل . والغلول، والمكروه، والشبهة". (٧٦)

قال –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:

(مثل المؤمن مثل النحلة، إن أكلت أكلت طيبا، وإن وضعت وضعت طيبا، وإن وقعت على عود نخر لم تكسره، ومثل المؤمن مثل سبيكة الذهب، إن نفخت عليها احمرت، وإن وزنت لم تنقص) (٧٧)

(الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، وكسبه من طيب) (٧٨)

(أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}

[المؤمنون:٥١] وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة:١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك) (٧٩)

(من أكل طيبا، وعمل في سنة، وأمن الناس بوائقه، دخل الجنة) قالوا: يا رسول الله، إن هذا في أمتك اليوم كثير. قال: (وسيكون في قرون بعدي) (٨٠)

(لا تستبطئوا الرزق، فإنه لم يكن عبد ليموت حتى يبلغه آخر رزق هو له، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، أخذ الحلال، وترك الحرام) (٨١)

(اجعلوا بينكم وبين الحرام سترا من الحلال، من فعل ذلك استبرأ لعرضه ودينه، ومن أرتع فيه كان كالمرتع إلى جنب الحمى، يوشك أن يقع فيه، وإن لكل ملك حمى، وإن حمى الله في الأرض محارمه) (٨٢)

(كل المسلم على المسلم حرام: ماله، وعرضه، ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) (٨٣)

(ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال؟ أمن حلال أم من حرام؟) (٨٤)

(كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به) (٨٥)

الورع الورع

قالت عائشة –رضي الله عنها–: "إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة وهو الورع".

وقال عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما–: "لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار، لم يقبل ذلك منكم إلا بورع حاجز".

وقال سهل التستري: "لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي من الظاهر والباطن، والصبر على ذلك إلى الموت".

وقال –رحمة الله–: "من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى، علم أو لم يعلم، ومن كانت طعمته حلالا أطاعته جوارحه، ووفقت للخيرات". (٨٦)

قال الحكماء: "كسب الحلال فريضة بعد الفريضة".. أي بعد المكتوبات الخمس كما أشار إليه الغزالي، أو بعد أركان الإسلام الخمسة المعروفة عند أهل الشرع، أو المراد فريضته متعاقبة يتلو بعضها لبعض، أي لا غاية لها ولا نهاية، لأن طلب كسب الحلال أصل الورع، وأساس التقوى، وروى النووي في بستانه عن خلف بن تميم، قال: رأيت إبراهيم بن أدهم بالشام. قلت: ما أقدمك؟ قال: لم أقدم لجهاد ولا لرباط، بل لأشبع من خبز حلال.

قال الغزالي –رحمة الله–: الورع عن الحرام على أربع درجات:

الأول: ورع العدول، وهو الذي يجب الفسق باقتحامه، وتسقط العدالة به، ويثبت اسم العصيان والتعرض للنار بسببه، وهو الورع عن كل ما تحرمه فتاوى الفقهاء.

قال إبراهيم بن أدهم: "ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه".

وقال سفيان: "من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب النجس بالبول، والثوب النجس لا يطهره إلا الماء، والذنب لا يكفره إلا الحلال".

وقال يحيى بن معاذ: "الطاعة خزانة من خزائن الله إلا أن مفتاحها الدعاء وأسنانه لقم الحلال".

الثاني: ورع الصالحين، وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ولكن المفتي يرخص في التناول بناء على الظاهر، فهو من مواقع الشبهة على الجملة.

قال –صلى الله عليه وسلم–: (دع ما يريبك إلى ما لا يريبك) (٨٧)

ويروى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم لأنه حاك في قلبه شيء.

الثالث: ورع المتقين، وهو ما لا تحرمه الفتوى، ولا شبهة في حله، ولكن يخاف منه أداؤه إلى محرم، وهو ترك ما لا بأس به مخافة مما به بأس.

قال عمر: "كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام".

وقال أبو الدرداء: "إن من تمام التقوى أن يتقي العبد في مثال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراما حتى يكون حجابا بينه وبين النار".

وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة، وقال: "وهل ينتفع منه إلا بريحه"؟

ويشمل هذه الدرجة: الإسراف في التنعم بالطيبات، خشية أن تقود العبد إلى غيرها من المحرمات، فالاسترسال في المباحات داعي إلى المحظورات، كالاستكثار من الطعام للشاب العزب، فإنه يحرك الشهوة، وكالنظر إلى دور الأغنياء وتجملهم، فإنه يهيج الحرص ويدعو إلى طلب مثله، وهكذا المباحات كلها، إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة مع التحرز من غوائلها بالمعرفة أولا ثم بالحذر ثانيا، فقلما تخلو عاقبتها عن خطر.

الرابع: ورع الصديقين، وهو ما لا بأس به أصلا، ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما بأس به، ولكنه يتناول لغير الله وعلى غير نية التقوي به على عبادة الله، أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية.

وهذه رتبه الموحدين المتجردين عن حظوظ أنفسهم، المنفردين لله تعالى بالقصد، ولا شك في أن من يتورع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ليتورع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية.

فعن عائشة –رضي الله عنها– قالت: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوما بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته، فلقيني فأعطاني بذلك. فهذا الذي أكلت منه. فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه. (٨٨)

ومن هذا ما روي عن بعض السلف أنه إذا كان في طريق الحج لم يشرب من المصانع التي عملتها الظلمة، وقيل لإبراهيم بن أدهم: لم لا تشرب من ماء زمزم؟ فقال: لو كان لي دلو شربت منه. (٨٩)

الهوامش والمصادر

(١) فعن عبد الله بن عمر: رواه الطبراني في المعجم الكبير والحاكم في المستدرك برقم ٧٨٧٦ ج ٤ ص ٣٤٩ والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٥٢٥٧ ج٤ ص ٣٢١

. وعن عبد الله بن عمرو: رواه أحمد في المسند / مسند المكثرين من الصحابة برقم ٦٣٦٥ ورواه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٤٨٠١ ج٤ ص ٢٠٥ وقال: هذا الإسناد أتم وأصح ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب برقم ١٥٠٥ ج١ ص ٣٣٧٤ ورواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق برقم ٢٧١، قال العراقي: وفيه ابن لهيعة، وقال الهيثمي بعد ما عزاه لأحمد والطبراني فيه ابن لهيعة، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح

. وعن عبد الله بن عباس: رواه ابن عدي في الكامل ٤٥٥/١٤ وابن عساكر في تاريخه ١٤٥/٨٧

وقال المنذري: رواه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي بأسانيد حسنة وفيه عند البيهقي شعيب بن يحيى. قال أبو حاتم ليس بمعروف، وقال الذهبي، بل ثقة عن ابن لهيعة وفيه ضعف. وقال الهيثمي: إسناد أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني حسن والحديث صححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم ٨٧٣، وفي السلسة الصحيحة برقم ٧٣٣ وتخريج الترغيب ١٢/٣

(٢) مكارم الأخلاق ج: ١ ص: ٢٦ برقم ٣٢ (٣) رواه مسلم . كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٧٢١(صحيح) وانظر حديث رقم: ٤٠٧١ في صحيح الجامع. السيوطي / الألباني (٤) رواه الترمذي . كتاب صفة القيامة والرقائق والورع برقم ٢٤٤٢ وكذلك رواه أحمد وابن حبان (صحيح) حديث رقم: ٣٣٧٨ في صحيح الجامع. (٥) فيض القدير للمناوي ٥٥/٢ (٦) شعب الإيمان ج: ٤ ص: ٢٣٣ برقم ٤٩٠٤ (٧) شعب الإيمان ج: ٤ ص: ٢٣٢ برقم٤٩٠٠ (٨) مكارم الأخلاق ج١ ص٥٠ برقم ١٣٥ (٩) صلاح الأمة د/ العفاني ج٥ ص ٤٢ (١٠) شعب الإيمان ج٤ ص ٢٣٢ برقم ٤٨٩٩ (١١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (صحيح) انظر حديث رقم: ٤٦١٨ في صحيح الجامع. (١٢) رواه أحمد والحاكم (صحيح) انظر حديث رقم: ٤٦٧٥ في صحيح الجامع. (١٣) شعب الإيمان ج: ٤ ص: ٢٣٠ . ٢٣٣ (١٤) أخبار مكة ج: ١ ص: ٢١١ (١٥) الزهد لهناد ج: ٢ ص: ٥٠٨ برقم ١٠٤٦

(١٦) في ظلال القرآن . سيد قطب . دار الشروق ص ٦٨٩ (١٧) رواه الترمذي (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٧٨٧ في صحيح الجامع السيوطي / الألباني (١٨) رواه أحمد _ باقي مسند

الأنصار برقم ٢٣٧٣٥ (١٩) رواه مسلم . كتاب النكاح برقم ٢٥٩٨ (٢٠) رواه أحمد والترمذي (صحيح) انظر حديث رقم: ٤١١٦ في صحيح الجامع. (٢١) فيض القدير . المناوي ٢/ ٥٣٤ (٢٢) سنن البيهقي ج٥ ص ٢٥٨ (٢٣) رواه الترمذي (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٤٠ في صحيح الجامع. (٢٤) فيض القدير . المناوي بتصرف يسير ٧٦٨/٢

(٢٥) رواه أحمد وابن حبان (حسن) انظر حديث رقم: ١٠١٨ في صحيح الجامع. (٢٦) سنن البيهقي ج٦ ص٢٨٨ (٢٧) البخاري . كتاب الشهادات برقم ٢٤٨٤ (٢٨) سنن البيهقي الكبرى ج: ٦ ص: ٣٥٣ (٢٩) حلية الأولياء ج: ٥ ص: ٣٣٦ (٣٠) تاريخ بغداد ج: ١٣ ص: ٣٥٨ (٣١) شعب الإيمان ج: ٤ ص: ٣٢١ (٣٢) شعب الإيمان ج: ٤ ص: ٣٢٧ (٣٣) صفوة الصفوة ج: ١ ص: ٥٤٩ (٣٤) محاسن التأويل . القاسمي ج٧ ص ٣٨ (٣٥) رواه الحكيم الترمذي (حسن) انظر حديث رقم: ٢٥٧٥ في صحيح الجامع. (٢١) فيض القدير ١٥٦/٢ (٣٦) حلية الأولياء ج: ١ ص: ٢٠٤ (٣٧) متفق عليه (صحيح) انظر حديث رقم: ٨٨٩ في صحيح الجامع (٣٨) جامع العلوم والحكم ج: ١ ص: ١٨١ (٣٩) شعب الإيمان ج: ٤ ص: ٣٢٧

(٤٠) تفسير القرطبي ج٨ ص ٦٨٩٦ (٤١) الزهد لهناد ج: ٢ ص: ٥٩٨ برقم ١٢٦٩(٤٢) رواه مسلم . كتاب البر والصلة والآداب برقم ٤٦٣٢ (٤٣) رواه أحمد في مسنده . مسند الشاميين برقم ١٧٣٢٠ (٤٤) رواه أبو داود . كتاب الأدب برقم ٤١٦٧ (حسن) انظر حديث رقم: ١٤٦٤ في صحيح الجامع. (٤٥) رواه الطبراني في الكبير عن أسامة بن شريك(صحيح) انظر حديث رقم: ١٩٧٧ في صحيح الجامع (٤٦) رواه الطبراني في الكبير عن أسامة بن شريك (صحيح) انظر حديث رقم: ١٧٩ في صحيح الجامع (٤٧) رواه أحمد والترمذي عن أبي ذر (حسن) انظر حديث رقم: ٩٧ في صحيح الجامع (٤٨) رواه الطبراني عن ابن عمرو (حسن) انظر حديث رقم: ٩٥١ في صحيح الجامع (٤٩) مسند أبي يعلى عن أنس (حسن) انظر حديث رقم: ٤٠٤٨ في صحيح الجامع (٥٠) رواه البيهقي في السنن عن أبي الدرداء. (صحيح) انظر حديث رقم: ١٣٥ في صحيح الجامع (٥١) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي سعيد (حسن) انظر حديث رقم: ١٢٣١ في صحيح الجامع (٥٢) رواه البزار عن أنس (صحيح) انظر حديث رقم: ١٥٧٨ في صحيح الجامع (٥٣) رواه الترمذي عن أبي الدرداء. (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٧٢٦ في صحيح الجامع (٥٤) رواه أحمد والطبراني عن ابن عمرو (صحيح) انظر حديث رقم: ١٩٤٩ في صحيح الجامع (٥٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٦٤٥ في صحيح الجامع (٥٦) رواه الطبراني عن ابن مسعود (صحيح) انظر حديث رقم: ٢٦٠٩ في صحيح

الجامع (٥٧) رواه الحاكم عن أبي هريرة (صحيح) انظر حديث رقم: ٦٤٨٤ في صحيح الجامع (٥٨) رواه الترمذي عن جابر(حسن) انظر حديث رقم: ٢٢٠١ في صحيح الجامع (٥٩) رواه أحمد عن أبي هريرة (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٢٦٢ في صحيح الجامع. (٦٠) رواه أحمد عن عائشة –رضي الله عنه– (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٧٦٧ في صحيح الجامع (٦١) العقد الفريد ٢٨٧/١ (٦٢) عيون الأخبار ٢٨٤/١ (٦٣) وفيات الأعيان ١٨٨/٢ (٦٤) الزهد لهناد ج: ٢ ص: ٦٠٠ برقم ١٢٧٥ (٦٥) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٣٥٢ برقم ٨٤٧٨ (٦٦) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٣٥٦ برقم ٨٥٠٤ (٦٧) حلية الأولياء ج: ٢ ص: ٢٧٤ (٦٨) شعب الإيمان ج٦ ص ٢٦١ برقم ٨٤٨٣ (٦٩) شعب الإيمان ج٦ ص ٢٦١ برقم ٨٤٩٧ (٧٠) صفوة الصفوة ج: ٤ ص: ١٢٠ (٧١) شعب الإيمان ج٦ ص ٣٥٥ (٧٢) شعب الإيمان ج٦ ص ٣٥٥ برقم ٨٤٩٦ (٧٣) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٣٦٥ برقم ٨٥٤٥ (٧٤) شعب الإيمان ج: ٦ ص: ٣٥٨ برقم ٨٥٠٦

(٧٥) في ظلال القرآن . سيد قطب ص ١٥٥ (٧٦) تفسير القرطبي ج: ٢ ص: ٢٠٨ (٧٧) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو (حسن) انظر حديث رقم: ٥٨٤٦ في صحيح الجامع (٧٨) رواه البيهقي وابن حبان عن أبي ذر (حسن) انظر حديث رقم: ٢٧٨٥ في صحيح الجامع. (٧٩) رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة (حسن) انظر حديث رقم: ٢٧٤٤ في صحيح الجامع (٨٠) رواه الحاكم عن أبي سعيد الخدري وصححه ووافقه الذهبي (٨١) رواه الحاكم عن جابر (صحيح) انظر حديث رقم: ٧٣٢٣ في صحيح الجامع (٨٢) رواه ابن حبان والطبراني عن النعمان بن بشير (صحيح) انظر حديث رقم: ١٥٢ في صحيح الجامع. (٨٣) رواه أبو داود عن أبي هريرة (صحيح) انظر حديث رقم: ٤٥٠٩ في صحيح الجامع (٨٤) رواه البخاري وأحمد عن أبي هريرة (صحيح) انظر حديث رقم: ٥٣٤٤ في صحيح الجامع (٨٥) رواه الطبراني عن أبي بكر. (صحيح) انظر حديث رقم: ٤٥١٩ في صحيح الجامع. (٨٦) راجع إحياء علوم الدين ج٢ كتاب الحلال والحرام (٨٧) رواه أحمد عن أنس (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٣٧٧ في صحيح الجامع. (٨٨) البخاري . كتاب المناقب برقم ٣٥٥٤ (٨٩) إحياء علوم الدين ج٢ كتاب الحلال والحرام بتصرف.

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com